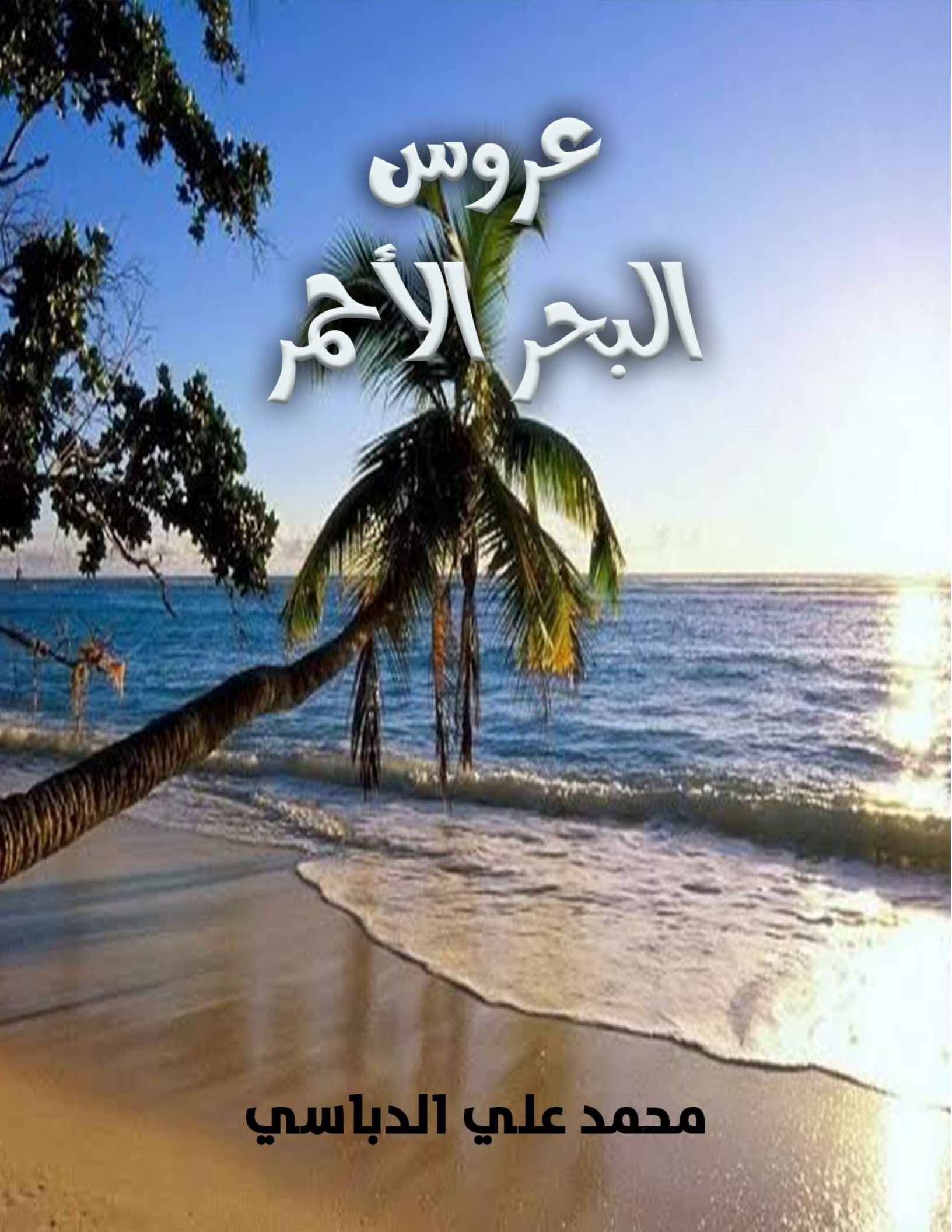
عروس
البحر الأحمر
محمد علي الدباسي

عروس البحر الأحمر

روايـة

تأليف

محمد علي الدباسي

2023

عنوان المؤلف	عروس البحر الأحمر
المؤلف	محمد علي الدباسي
التصنيف	رواية
رقم الإيداع القانونى	2023 / 32715
الترقيم الدولى	978-977-6656-30-1
رقم الإصدار الداخلى	1173 الطبعة الأولى مايو 2023
عدد الصفحات	206صفحات
	مؤسسة النيل والفرات
بريد إلكتروني	maldubasi@gmail.com
تواصل اجتماعي	m19aldubasi
تصميم الغلاف	الأستاذة ياره السباعي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى دارنشـــر طبع ونشر وتوزيع الكتاب أو ترجمته أو الإقتباس منه أو نشره على النت الا بموافقة كتابية وموثقة من المـــؤلـــف

الإهداء ...

إلى صاحبة القلب الكبير والنفس الأبية أمي عفظها الله وإلى والدي الغالي رحمه الله..
إلى سندي الكبير الغالي العزيز..
إلى زوجتي الغالية..
إلى سندي الأساسي وإلى سندي العزيز الأول..
إلى رفيقاي الأعزاء..
إلى صغاري وإلى أبنائي وإخوتي..
إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد..
إلى كل من ساعدني جزء العمل وقضينا معا..
وإلى الأبناء والبنات أمينا وإلى كل الأبناء.

مع حبي..

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحداث هذه الرواية من خيال المؤلف، لكنها حدثت بتصرف في يمننا الكبير، وتكررت في أماكن مختلفة من هذا العالم، بنفس الألم، واختلاف التفاصيل.

مشهد أول:

من هذا الاتجاه يا بيتر.

من هذا الاتجاه.

سنعبر مضيق باب المندب هذه المرة.

القبطان بيتر: ولماذا يا سيدي؟

الضابط ريتشارد: هكذا هي الأوامر، إنها عدن.

القبطان بيتر: لكنك تطلب مني عبور مضيق باب المندب، والدخول إلى البحر الأحمر وليس الاتجاه نحو عدن.

الضابط ريتشارد: نعم، سنتوقف في الحديدة لتنزل سالي، ثم سنواصل تنفيذ الخطة في المخا وبقية المناطق، لقد اقترب دخول عدن.

الرواية:

تعز..

المدينة الحالمة.

الخضراء بأراضيها، والعتيقة بتاريخها، والعظيمة بجبالها.

رائعة بأجوائها الباردة، وهوائها العليل، وشمسها الدافئة، ومسطحاتها الخضراء.

بها قلعة القاهرة، تلك القلعة الكائنة على السفح الشمالي لجبل صبر، لتراقب المدينة، وكأنها بلقيس تريد أن تطمئن على شعبها.

ما أجمل نواحي تعز، وما أروع أسواقها.

ما بين الباب الكبير وباب موسى الكثير من التفاصيل البسيطة التي تتكرر في كل ناحية من نواحي تعز، بل وفي كل أنحاء اليمن السعيد.

في كل حي من أحيائها يستقبلك الناس بابتسامتهم المعهودة، رغم ما يعانونه في هذه الحياة.

الناس هنا تعرف بعضها البعض.

كل بيت من بيوتها هو بيت لكل أهل الحي فيها.

الأطفال يركضون ويلعبون، النسوة يتزاورون.

والرجال تجدهم عند مقهى الحي، يتبادلون أخبار السياسة، والثقافة، ولذلك كانت تعز هي عاصمة الثقافة في اليمن، بل وفي المنطقة على مر السنين.

وهناك..

ومن إحدى قرى تعز كان لنا مع الجمال لقاء.

ما أجمل صوت الناس في القرية وهم يخرجون إلى صلاة الفجر، يستيقظون عند السحر، فيوقظون الديكة قبل أن توقظهم.

يخرجون إلى مساجدهم، ويصلون لربهم، ثم يعودون إلى بيوتهم قبل أن تسبقهم الشمس إليها.

نساؤهم تعد طعام إفطارهم، فيتناولونه معهن في بيوتهم، أو تلحق النساء لهم بالطعام إلى حيث مزارعهم على صوت الملالي.

ما أروع تلك القرى، وما أطيب من سكن فيها.

الشيخ راجح: ليس لها نصيب من الأرض، هل تقبلون أن تذهب الأرض لزوجها ابن المخاولة؟

أنسيتم ما فعله المخاولة بنا منذ فترة عند الوادي؟

لقد اغلقوا الطريق، وأغلقوا ماء السد، مريم عاقة، لقد رفضت أن تعود إلينا وتترك زوجها، والآن تريد نصيبها من أرض أمها.

نشوان: لكن يا أبي.

الشيخ راجح: أنت تسكت، لأنك ذهبت إلى القاهرة ودرست هناك تريد الآن أن تعلمنا ماذا نفعل؟

مازلت صغيرًا، إخوانك الكبار لم يتكلم منهم أحد.

نشوان: لكن يا أبي هذا..

الشيخ راجح: اسكت، أنظر إلى شقيقك أحمد، طلق زوجته المخولية وأخذ بكلامي، أما مريم فجلست عند زوجها المخولي، والآن تأتي لتطالب بنصيبها من أرض أمها.

حتى لو جارت عليها الظروف، لابد أولًا أن تترك زوجها، وعندها سأفكر في نصيبها.

الشيخ راجح هو شيخ قرية المصافدة، له أربعة أبناء: أحمد، ومحمود، ومنصور، ونشوان، ولديه ابنة واحدة اسمها مريم، والتي تزوجت قبل سبع سنوات من ابن شيخ قرية المخاولة.

البيئة الريفية في اليمن بيئة جميلة ورائعة، لكن القبيلة تحكم عاداتها وتقاليدها.

قرية المصافدة هي قرية مجاورة لقرية المخاولة، تجمعهما خدمات ومصالح مشتركة، لكن مشكلة مياه الوادي والذي يسيطر عليه المخاولة، والذين منعوا المصافدة من الوصول إليه بسبب قضية قتل بالخطأ لأحد أبنائها من قبل شاب من المصافدة اسمه سعيد، والذي خرج مع ابنهم سفيان المخولي إلى الصيد، فسقط سفيان من إحدى المرتفعات، فهرب عندها سعيد دون الرجوع إلى القرية والحديث عن تفاصيل مقتل سفيان، لأن الخوف حينها كان قد غلبه، ولأنه يعلم بأن روايته لن يصدقها المخاولة.

بعد يوم من سقوط سفيان رأى المخاولة جثة ابنهم الذي خرج مع سعيد المصفدى.

وجدوه مقتولًا، ولا أثر لسعيد، فجن جنونهم.

بحثوا عن سعيد، فلم يجدوه.

زاد غضبهم، فأدى ذلك إلى إغلاقهم لمياه سد الوادي بوجه المصافدة، واتهامهم بقتل ابنهم.

سعيد شاب من شباب المصافدة، يعمل مدرسًا في القرية، وهو ابن أخ الشيخ راجح.

هو لم يتسبب في مقتل صديقه سفيان، سقط سفيان بسبب ظلمة الليل.

كانا أكثر من صديقين، تعودا على الخروج إلى الصيد بين وقت وآخر.

تفاجأ سعيد بسقوطه، لم يدري ماذا يفعل.

من سيصدقه؟

هرب، كان حلًا سريعًا وليته فكر في الأمر.

ما أروع عدن..

تلك المدينة الرائعة، والتي تقع على المحيط الهندي.

مدينة تجمع في جمالها بين البحر والجبل.

في شواطئ عدن لن تحتاج إلى مظلة لتحميك من الشمس وأنت تستمتع بالبحر وصوت أمواجه، فجبالها هي ظلك.

تحفك أنت والبحر، وكأن جبالها تحرس ذلك المحيط بعين، وتحرس عدن بالعين الأخرى.

مدينة فاتنة في تفاصيلها.

في بساطتها.

كل شيء فيها يزيدها جمالًا.

ضحكات أطفالها.

حشمة نسائها.

بساطة رجالها.

نسيم بحرها.

كل شيء فيها يجعلك تحبها.

هي ملتقى العالم عند جنوب الأرض، وبوابة الانطلاق نحو شمالها.

يفد إليها الناس من كل مكان.

يستريحون فيها قبل مواصلة أسفارهم.

هي مطمع للكثير من الدول الاستعمارية بسبب موقعها الاستراتيجي المهم، فهي بوابة الدخول من المحيط الهندي إلى جزيرة العرب، ثم إلى الشرق الأوسط وأوروبا.

حياة بسيطة يعيشها أهل هذه المدينة الفاتنة، لكنها جميلة بجمال أحيائها.

وصل سعيد إلى عدن لا يدري أين سيستقر به الحال.

لا يدري إلى أن يذهب؟

كان الصباح، وكانت دكاكينها هي ما يريده بدايةً.

كان بين خوف، وحزن، وجوع، وتعب.

خوف من مصير ينتظره.

وحزن على صديق عمره.

وجوع وتعب بسبب ما عاناه في طريقه.

وصل سعيد وكله أمل بأن تُذهب عدن عنه كل ما أصابه.

وكيف لا، وعدن هي أم اليمنيين.

ريتشارد ضابط كبير في جهاز المخابرات لإحدى الدول الأجنبية التي لها مطامع في الشرق الأوسط، ككل الدول والإمبراطوريات الموجودة في تلك الفترة، والتي حاولت أن تحتل اليمن عدة مرات.

انتدبه جهاز المخابرات في بلاده لمهمة سرية جدًا في اليمن هذه المرة.

أبحر ريتشارد وفريقه من على سفينة تجارية لتنفيذ تلك المهمة السرية، والتي لم يكن يعلمها إلا هو، والقبطان بيتر، وسالي.

بيتر هو ضابط بحري يعمل في القوات البحرية، أوكلت له مهام تنقلات ريتشارد ومساعدته في مهمته.

سالي شابة في الخامسة والعشرين من عمرها، ضابطة تنتمي لنفس جهاز المخابرات، تم انتدابها لنفس المهمة تحت إمرة ريتشارد.

سالي شابة تعود لأب أوروبي وأم كذلك أوروبية، لكن أصول والدتها تعود لسورية ولذلك هي تجيد العربية بلكنة شامية مكسرة.

كان الهدف من وجودهم في اليمن هو دراسة اليمن من الداخل، وتنفيذ أجندة سرية لتسهيل احتلالها وتقسيمها فيما بعد، وكانت عدن هي الهدف الأول للاحتلال، ويساعدهم في تلك المهمة كذلك مجموعة من

العملاء تم اختيارهم بدقة، وتم تجنيد البعض الآخر في داخل اليمن من قبل ريتشارد.

لم يكن استهداف اليمن من أجل زيادة الرقعة الجغرافية لبلادنا العظمى فقط، فهي بلاد لا تغيب عنها الشمس، بل لخيراتها الكثيرة وما بها من ثروات، وكذلك لموقعها الجغرافي المهم على المحيط الهندي، ومدخلها الاستراتيجي عند مضيق باب المندب للدخول إلى أوروبا من البحر الأحمر وعبر قناة سيتم تشييدها لتصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، فالبحر الأحمر هو الشريان الذي سيغذي أوروبا بكاملها دون الحاجة لقطع الكثير من المسافات عبر المحيطات، إنه سيختصر علينا الكثير.

هذا ما قاله ريتشارد للقبطان بيتر وهما يتناولان طعام العشاء من على ظهر سفينتهما.

بيتر: جميل جدًا.

ريتشارد: أين سالي؟

بيتر: في غرفتها.

ريتشارد: لماذا ذهبت هذه الفتاة سريعًا إلى غرفتها مع مغيب الشمس؟

بيتر: هكذا هي دائمًا.

ريتشارد: تصر هذه الفتاة على الذهاب إلى غرفتها وغلق الباب عند حلول المساء.

بيتر: لأنها لا تريدك سيدي.

ريتشارد: اصمت، هيا اجلب لي النبيذ.

الحديدة..

تلك العروس التي تعانق عشيقها بكل غرام.

إنه البحر، الذي يحبها وتحبه.

كل شيء هنا يدل على جمال المحب، وبساطة الحبيب.

نخيل فوق رمال ذهبية.

صيادون قادمون من الأعماق، يحملون ما رزقهم الله به من خيرات البحر.

سوق سمك، وأصوات باعة لا يعلوا عليها شيء.

هناك من يدفع الثمن، وهناك من يأخذ بلا مقابل، فالرحمة هنا هي شعار السوق لسكان أرق قلوبًا وألين أفئدة.

عشش مترامية الأطراف، وبيوت أخرى من حجارة تسر الناظرين.

قهوة شعبية، وأطفال يتسابقون.

كانت الشمس على وشك الغروب.

ما أجمل غروب الشمس في الحديدة، وما أشد قسوته.

جماله في تلك الصورة الرائعة التي ترسمها تلك الشمس مع ذلك البحر في لوحة فنية رائعة يعيشها أهل الحديدة في كل يوم، لكنه يوحي بوداع مؤلم لتلك الشمس لساكني هذه المدينة.

مؤلم، وكأن الشمس لا ترغب بفراق ساكنيها، فقد أحبتهم كما أحبوها، فالشمس هنا تعني لهم الدفء، والخروج إلى الرزق وسط تلك الأمواج التي تناديهم بصوتها، فيفهمونها وتفهمهم.

يقولون بأن البحر غدار، لكن ليس ذلك في الحديدة، فبحرها مثل أهلها أرق ملوحةً وألين موجًا.

شمس دافئة، وبحر ساحر، وأناس رائعون زادوا من روعة الحياة على هذه المدينة الهادئة.

في مساء أحد الأيام اقتربت سفينة ريتشارد من شاطئ الحديدة الصغير.

حطت السفينة، لكنها تنحت بعيدًا عن أعين الناس تنتظر مغيب الشمس وعودة الناس إلى بيوتهم وانتصاف الليل.

ريتشارد: الان ستنزلين وحدكِ هنا يا سالي.

سالي: نعم بالتأكيد.

ريتشارد: تعلمين جيدًا ما هو المطلوب منكِ؟

سالي: بالتأكيد سيدي.

نزلت سالي عبر قارب صغير إلى منطقة خالية من البشر، ثم مشت باتجاه البيوت، ووصلتها قبل الفجر.

نسمات الفجر في الحديدة رائعة، خاصة وأنها تختلط بنسيم البحر.

المسير قبل الفجر في شوارع الحديدة يشعرك بالاطمئنان، فلا سكون يريح السارقين، فأصوات الأمواج تشعرك بأن المدينة مازالت مستيقظة رغم مبيت أهلها الذين تحرسهم تلك الأمواج وضوء القمر.

يستيقظ أهلها بطمأنينة قبيل الفجر وقبل صوت الأذان، فيخرجون إلى مساجدهم أو باتجاه البحر، فالصلاة في الحديدة ليس شرطًا أن تكون في مساجدهم بل منهم من يصليها بجوار مياه البحر للنزول إلى الصيد بعد الصلاة مباشرة.

يخرج عادة كبار السن قبل الأذان، ويعلوا صوت بعضهم مع صوت تلك الأمواج:

الصلاة خير من النوم.

حياة رائعة في تلك المدينة الساحرة.

من أنتِ، وعن ماذا تبحثين؟

صوت سمعته سالي من خلفها لرجل كبير خارج لتوه من صلاة الفجر.

سالي: اسمي سالي، وأعمل ممرضة، وأبحث عن المركز الصحي، جئت منذ قليل من منطقة بعيدة مع قافلة مرت من هنا.

العم صابر: لدينا مركز صحي هنا، ابني الدكتور حمدي هو الطبيب الوحيد في المنطقة.

سالي: رائع، هل من الممكن أن تدلني على سمسرة قريبة من هنا لأمكث فيها بعد عناء السفر؟

العم صابر: ولماذا تذهبين إلى سمسرة؟ مرحبًا بكِ في بيتي، ستفرح ابنتي منال بكِ كثيرًا.

ذهبت سالي مع العم صابر إلى بيته، وأفرحها ذلك كثيرًا، فمن خلال تواجدها في أحد بيوت الحديدة سيسهل ذلك كثيرًا من مهمتها فيما لو أنها سكنت في سمسرة قريبة.

منال هي البنت الكبرى للعم صابر، حيث توفيت زوجته قبل سنوات، فأصبحت منال هي من تهتم بشؤون البيت، ولديها شقيقة أخرى تصغرها بسنوات اسمها حسناء، وكذلك شقيق يكبرها بسنة واحدة اسمه حمدي.

كانت منال مشغولة بإعداد وجبة الفطور.

لم يكونوا بحاجة إلى جلب الطعام من الخارج فالبيوت هنا تقوم بإعداد كل شيء.

كَدر، كُبَان، لبن، لُحُوح، سمن، فول، جبن، سمك.

مائدة تهامية بسيطة لا يكاد يخلوا منها بيت من بيوتها.

لدينا ضيفة يا منال.

قالها العم صابر لابنته ومرحبًا بسالي.

منال: مرحبًا بها، تفضلي.

سالي: أشكركِ.

تناولت سالي الطعام مع منال وشقيقتها الصغرى حسناء بعد أن رحبا بها، ثم طلبت منها منال أن تستحم، وتغير ملابسها، وتستريح قليلًا على فراشها، فآثار السفر باديةً عليها، حتى تنتهي منال من أعمال المنزل، وتجهيز طعام الغداء.

ذهبت سالي للاستحمام، ثم غيرت ملابسها ونامت، وأكملت منال مهام المنزل.

العم صابر هو كبير الصيادين هنا وشهبندر تجار الحديدة، ولديه الكثير من الصيادين ممن يعملون لديه.

العم صابر رجل طيب وحكيم، يساعد المحتاجين ويقدم العون لهم، ويلجأ إليه الكثير من الناس لحل مشكلاتهم.

بعد أن استراحت سالي لأيام في بيت العم صابر الذين سعدت بهم وسعدوا بها بدأت تفكر في تنفيذ ما طلب منها ريتشارد تنفيذه من مهام.

المخا أو موكا..

مدينة القهوة الأولى في العالم.

حركة غير عادية في مدينة أصبحت حتى أسماكها تدمن تلك القهوة، ولا غرابة لو وصل بك الحال إلى أن تجد صيادًا يضع حبة بُن بدلًا من الطُعم لتلك الأسماك لصيدها.

رائحة البن تختلط بنسيم البحر، ولغات مختلفة تختلط في الأفق لبشر من كل بقعة من هذا العالم، جمعهم البُن اليمني برائحته التي تُرى بالعين المجردة في وقت أجمع العلماء على أن الروائح لا تُرى ولا تُرسم ولو كانت عطور باريسية.

موكا (كلمة مكسرة تعني مدينة المخا)، وهي المدينة التي يعد اسمها الأكثر نطقًا في العالم.

هي الكلمة التي اتفق عليها الجميع، وفهموها بلغاتهم المتعددة، فأصبحت الكلمة الأولى لتلك النبتة التي خرجت من اليمن لتريح مزاج العالم، لكن العالم ورغم ذلك لم يستطع أن يريح اليمنيين.

حبات البُن تشبه اللؤلؤ المكنون بل هي أغلى، هذا ما يشعرك به اليمني وأنت خارج بتلك الأكياس لتحملها على ظهر سفينة مغادرة إلى

بلاد العالم وكأنه يودع ابنه الذي يهاجر من بلاده ويوصيك بذلك الابن المسمى (البُن).

حطت سفينة ريتشارد في ميناء المخا، ونزل من على متنها هو وبيتر.

مرحبًا، مرحبًا.

بهذه الكلمات استقبل التاجر صفوان ريتشارد، وواصل حديثه:

لعلك تاجر؟

ريتشارد (والذي يتقن العربية مكسرة): نعم، أنا تاجر.

التاجر صفوان: مرحبًا بك وبمن معك، تفضلا.

ريتشارد: أنا تاجر أوروبي، سمعت عن البُن اليمني كثيرًا، لم آتي لشرائه بل للاستثمار فيه عن طريق شريك لي سيأتي لاحقًا.

التاجر صفوان: رائع جدًا، لنتحدث عن ذلك بعد أن نتناول الغداء في منزلي.

ريتشارد: وهو كذلك.

صفوان أحد كبار تجار البُن في المخا، لكنه في صدام دائم مع شهبندر التجار وبقية تجار المخا الآخرين، تجده دائمًا عند الميناء، يتصيد التجار القادمين قبل دخولهم السوق ويكتشفوا أسعار البُن وجودته.

صفوان رجل يتلاعب بالأسعار، ولا يبيع البُن اليمني الخالص، بل يقوم بخلطه مع بعض الأنواع التي يجلبها من أماكن أخرى، وأحيانًا قد يشتري البُن من المزارعين قبل نضجه بثمن بخس.

كان يتمنى صفوان لو كان هو شهبندر تجار المخا، لكن تجار المخا لم يختاروه، ولم يؤيدوه، ولذلك يبغض لهم الكراهية.

بعد أن تناول ريتشارد وبيتر الغداء عند التاجر صفوان ذهبا إلى سمسرة قريبة للسكن فيها والمبيت.

كانت سمسرة تتوسط المخا، وهذا ما أراده ريتشارد.

مضى أسبوع وريتشارد وبيتر يذهبان ويعودان مع التاجر صفوان، ويعرفهما على المخا، بل وذهب بهما صفوان إلى بعض المناطق والضواحي القريبة من المخا.

وجد ريتشارد ضالته في صفوان بما وجده من رغبة لدى صفوان لتقديم أي شيء مقابل أن يكون التاجر الأول في المخا، ووجد صفوان ريتشارد فرصة جيدة له لتحقيق أحلامه.

لاحظ شهبندر التجار (التاجر عبدالودود) وجود ريتشارد الأوروبي مع التاجر صفوان، وتضايق من ذلك.

كان في نفس الشيخ عبدالودود شيء من تواجد ريتشارد، فالتجار الأجانب الذين يأتون إلى المخا لا يتصرفون كما يتصرف ريتشارد وكأنه سيمتلك المخا بأكملها أو له غرض ما وليس تاجرًا يشتري فيها ويبيع.

كان يناقش ذلك مع بعض تجار المدينة من وقت لآخر ويبدي تضايقه، وناقش ذلك الأمر كذلك مع حاكم المخا الحاج مسعود، والذي لم يعلق بشيء، وليس ذلك بمستغرب عليه، فهو مثله مثل غيره من بقية حكام المناطق في اليمن في تلك الفترة، لا يهتمون كثيرًا بمعاناة الناس، فهم لا يهمهم إلا حماية قصورهم، وجباية الأموال من الناس عن طريق عساكرهم، ووأد كل صوت.

التاجر عبدالودود رجل طيب ووقور، وكل أهل المخا يحبونه، الصغير قبل الكبير، له أيادي بيضاء على الكثير من بيوت المدينة، وهو رجل حكيم، يلجأ إليه أهل المخا في الكثير من مشكلاتهم.

لدى عبدالودود ابن واحد اسمه رضوان، درس الطب في القاهرة، وكذلك ابنة اسمها هدى، تعيش وتساعد والدتها السيدة أنيسة في إدارة شؤون البيت.

اهتمت هدى بالعمل الخيري، وجعلت من إحدى غرف بيتهم مكانًا تجتمع فيه مع فتيات المدينة مثل: صديقتها سلمى، وريحانة ابنة

التاجر عيدروس الحضرمي، وعزيزة ابنة التاجر صفوان، وليلى ابنة التاجر يوسف المغربي، وغيرهن، ليقمن بتجهيز المواد الغذائية والمساعدات لتوزيعها على الفقراء والمحتاجين من وقت لآخر.

جعلت كذلك من غرفة أخرى مكانًا لتعليم بنات المخا القراءة والكتابة.

وعدها والدها والذي كان يقدم لها كل الدعم بأن ينشئ لها ولصديقاتها بجوار منزله مستودعًا كبيرًا لحفظ المساعدات، ومركزًا متكاملًا لتعليم القرآن، والعلوم الأخرى، وبمساعدة بعض تجار المخا، لأن الغرفة لا تكفي لتخزين كل المواد الغذائية، وليقمن كذلك بتعليم الفتيات بشكل أوسع وباستخدام طرق متطورة.

وعدها بأنه سيعمل على إنهاء كل الأمور المتعلقة بذلك في أسرع وقت، ليصبح المركز ملتقًا للفتيات، ومكانًا لقضاء وقت ممتع لهن.

إنه بيت الخير الذي يفد إليه كل محتاج.

إن مساعدة الإنسان وهو يواجه هذه الحياة هي أجمل ما يمكن تقديمه له.

هي اللمسة التي يبحث عنها كل من ضاقت به الحياة، ليشعر أن الجميع معه.

ليشعر بالطمأنينة قبل الشبع.

ليشعر بقرب من حوله، فهو يبحث عنهم ليشعر بدفء المشاعر قبل بحثه عن لحاف ليدفأ من برد الشتاء.

إن مساعدة الإنسان تعني الأمان بالنسبة له وهو يواجه هذه الحياة بكل ما فيها من مخاوف.

إن هدى وصديقاتها هنا تمثلن الكثير من أبناء وبنات اليمن الذين تعودوا على العمل الخيري ومساعدة المحتاج.

تعودوا على فعل ذلك بصفاء نية، وطلبًا لما عند الله، وليس سعيًا لتحقيق أهداف خاصة، أو خدمة لأجندة.

فكر نشوان في البحث عن ابن عمه سعيد، والذي مازال منذ الحادثة غائبًا، ولا يعرف أحد عنه شيئًا.

يفكر لأنه متأكد بأن هنالك شيء ما في القضية، فليس من المعقول أن يقدم سعيد على القتل وهو الشاب العاقل الرزين، خاصة وهو يعرف مثل غيره الصداقة القوية التي كانت بين سعيد وسفيان.

لا يمكن لصديق أن يقتل صديقه طالما تجمعهما معاني الصداقة الحقيقية.

الصداقة معنى سامي، وأمانة عظيمة، لا يؤدي حقها إلا من صدق فيها.

فكر نشوان في الذهاب إلى صنعاء ليبحث عنه هناك، أو إلى عدن، لكنه بدايةً قرر الذهاب إلى الحديدة والتي كان يسافر إليها مع سعيد ثم منها إلى مصر أثناء دراستهما الجامعية، خاصة وأن لديه بعض الأصدقاء في الحديدة، وكذلك يوجد هناك بيت خالته المتوفاة زوجة العم صابر، حيث أن والدته وزوجة العم صابر شقيقتان من المحويت تزوجتا من الصديقين راجح وصابر.

ذهب نشوان إلى الحديدة والتقى بابن خالته حمدي فرحب به وذهب به إلى بيته لتناول طعام الغداء.

سعدت منال بحضور ابن خالتها نشوان، فهي خطيبته، وقد يتزوجا قريبًا، فقد طلبها رسميًا والد نشوان من والدها.

بعد أن تناول نشوان طعام الغداء مع حمدي والعم صابر خرج إلى البحر مع ابن خالته حمدي ليواصلا حديثهما، ويستمتعان بالجو الجميل على الشاطئ.

وما الحل يا نشوان؟

قالها حمدي لابن خالته نشوان وهما يتناقشان عن سر اختفاء سعيد.

نشوان: لا بد أن نبحث عنه.

حمدي: وأين نبحث عنه؟

نشوان: لعله ذهب إلى صنعاء أو إلى عدن.

حمدي: ولماذا صنعاء أو عدن؟

نشوان: لا أدري، لكن ربما.

حمدي: إذًا سأذهب إلى صنعاء وأطلب من أحد أصدقائي وهو الدكتور سامي بالبحث عنه، وأنت اذهب إلى عدن.

نشوان: اتفقنا.

أكمل الصديقان استمتاعهما بالجو الجميل على الشاطئ، ثم عاد نشوان إلى قريته بعد أن اتفق مع حمدي على البحث عن سعيد.

مكثت سالي في بيت العم صابر تنام مع منال وحسناء، وتقضي معهما أجمل الأوقات، فقد أصبحت الأخت الثالثة في هذه العائلة.

أشارت سالي على منال برغبتها في العمل في عيادة أخيها الدكتور حمدي، خاصة وأنها تجيد أعمال التمريض، وكذلك لرغبتها في أن يكون لها دور في المجتمع الذي تعيش فيه (هكذا هي الأوامر من قبل ريتشارد، حتى تستطيع أن تتعرف وتتعمق في مجتمع الحديدة بدرجة كبيرة).

ذكرت كذلك سالي لمنال بأنها عايشت الأوضاع المادية للكثير من الناس هنا، ورأت بأنها لا تسر عدو ولا صديق، وأن لديها بعض المال تستطيع أن تقوم من خلال إنفاقه بالكثير من البرامج التي تطور من حال الناس هنا، وأنها بحاجة إلى مساعدتها.

أخبرتها بأن الظروف المادية السيئة للناس تزيد من الأمراض، فالاستقرار المعيشي مهم جدًا للإنسان، ولذلك كما أنه ولابد لنا من أن نوفر لهم الدواء لابد لنا كذلك من توفير احتياجاتهم المعيشية، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج كما قيل.

رحبت منال بالأمر، وبأنها ستساعدها في ذلك، خاصة وأن منال ليست ممرضة متخصصة، لكنها تقوم بمساعدة أخيها بسبب عدم وجود ممرضة، وأنهما ومن خلال العيادة تستطيعان تقديم الكثير من الخدمات والمساعدات للأسر.

رحب الدكتور حمدي كذلك بالفكرة، وأخبر منال بأن سالي تستطيع الحضور معها للعيادة من الغد.

كم كانت سالي سعيدة بذهابها إلى العيادة.

شعور جميل تشعر به لأول مرة، فقد ذهبت في عدة مهام سابقة، وكانت تؤدي دورها كما هو مطلوب منها وينتهي كل شيء، لكنها هذه المرة كانت لديها رغبة حقيقية بالعمل، ولا تدري لماذا.

في صباح اليوم التالي توجهت سالي مع منال إلى العيادة.

لم تكن العيادة سوى ثلاث غرف صغيرة، واحدة بها سرير خاصة بالرجال، وثانية بها سرير خاصة بالنساء، وثالثة كمستودع بها بعض العلاجات الطبيعية، وبعض المركبات التي يتم جلبها من صنعاء والقاهرة.

هي ثلاث غرف، لكنها تعني الكثير للناس هنا.

ثلاث غرف وجودها تشعرهم بالطمأنينة أمام ما يحدث لهم وهم يسيرون في هذه الحياة من أجل لقمة عيشهم.

تشعرهم بالطمأنينة أمام تقدم السن، وآلام الشيخوخة، فما أقسى مضي الأيام.

تشعرهم بالطمأنينة لأنها تذكرهم بأن الناس لبعضهم، فالكثير منهم لا يدفعون شيئًا ثمنًا لأدوية تعيد لهم قوتهم، فالعم صابر يجلب الأدوية للفقراء هنا بالمجان وعلى حسابه.

ما أجمل أن تقدم للناس، وتسعى لفك كربهم.

أن تزيل همومهم.

أن تكون بلسمًا لهم وهم يمضون في هذه الحياة، ويقاسون مصاعبها.

أن تشعر ببساطتهم.

جعل الله البساطة لتشعرنا ببعضنا، فهي المساحة التي تلتقي فيها كل الطبقات.

كم هم رائعون أولئك الذين سخروا أنفسهم للناس، وكم هي الحياة جميلة في أعين أولئك الناس فقط لأن الله سخر لهم من يقدم لهم ليعيشوا، وكم هو مؤلم عندما نعلم بأن الحياة أصبحت قاسية إلى درجة أننا أصبحنا بحاجة لأن ندفع لها المال لنبقى.

يحضر مجلس الشيخ حسان المخولي الكثير من أبناء المخاولة للحديث حول شؤون القرية.

يأتيه كذلك طالب الحاجة، وهو مجلس إصلاح ذات البين بين أبناء المخاولة.

الشيخ حسان المخولي رجل شهم وطيب ويحبه الجميع، وكذلك الشيخ راجح المصفدي، لكنه العناد الذي حضر بينهما فكان ما كان.

للشيح حسان ابن اسمه عبدالرحمن، وهو الذي تزوج من مريم ابنة الشيخ راجح، وله كذلك ابنة أخرى اسمها عائشة.

أحيانًا كثيرة يكون الإنسان على قدر كبير من الخُلق والعقل، لكن قد تأتي صفة معينة تطغى على الكثير من قرارته وتجعله إنسانًا آخر.

كم هو مؤلم أن نكون كذلك.

لماذا نُغيب عقولنا عندما نكون في أشد الحاجة إليها؟

لماذا لا نعتمد على تلك العقول التي منحها الله لنا؟

هل لأننا نرى بأن ما شرعناه من عادات هي أولى أن تبقى حتى لو دفعنا ثمنًا لذلك سعادتنا واستقرارنا؟

أم أن خوفنا ممن هم حولنا، ومن كلامهم، واتهامهم لنا لو أننا تركنا تلك العادات، جعلتنا نُركن تلك العقول جانبًا؟

حاول ريتشارد في فترة إقامته في المخا من لعب دور الإصلاح بين التجار وبين صفوان.

كان يريد أن يصنع لنفسه دورًا مميزًا بينهم.

حاول أن يظهر حسن نيته للتجار، وأنه ما جاء إلا للتجارة، وزيادة أرباحه، وخدمة من حوله.

أنتم تملكون ثروة كبيرة بهذا البُن الذي تصدرونه إلى العالم، سأنقل لكم التجربة الغربية التي ستزيد من صادراتكم وثرواتكم.

قالها ريتشارد للتجار في مجلس شهبندر التجار الشيخ عبدالودود والذي حضره ريتشارد مع صفوان وبيتر في أحد الأيام وهم يتجولون في سوق المخا.

الشيخ عبدالودود: نحن يا ريتشارد أهل حضارة عتيقة بدأت مع بداية وجود الإنسان على هذه الأرض، نحن من علمنا الإنسان كيف يعيش، وماذا يصنع، وكيف يطور تجارته.

عن أي تجربة غربية تتحدث أمام حضارة كانت الأولى على هذه الأرض؟

وجودك اليوم هنا هو اعتراف بتسويق اليمنيون الجيد للبُن، ولو لم يكن كذلك لما أصبحنا نملك ويخرج من موانئنا البُن الأول في العالم.

نحن نرحب بك تاجرًا نعطيك مما عندنا ونأخذ مما عندك، واقتصادنا نحن من نبنيه، ولو أردت المساهمة فمرحبًا بك فردًا بيننا، فاليمنيين لا يردون أحدًا.

انظر حولك يا ريتشارد، ستجد: الهندي، والآسيوي، والحبشي، والأفريقي، والتركي، والغربي هنا في المخا وكأنهم عرب منا، لهم من الحقوق التجارية ما للعربي، فلا ضرائب، ولا شيء مما لم يفرضه الإسلام الذي به زادت الحضارة اليمنية ارتقاء.

كم كان واضحًا الصراع بين شهبندر التجار الشيخ عبدالودود وبين ريتشارد.

لم يكن الشيخ عبدالودود مطمئنًا له.

كان متأكدًا بأن هنالك شيء ما يخفيه ذلك الرجل، لكنه لا يعلمه، وكان ريتشارد يعلم جيدًا بأنه لن يستطيع اختراق التجار في المخا طالما هم يد واحدة، فكان لابد من إكمال خططه عن طريق صفوان طالما أن صفوان مستعد لتقديم أي شيء من أجل أن يكون التاجر الأول في المخا.

أحيانًا الطمع والغيرة والحقد تجعلنا لا نرى الحق ولا الطريق.

تجعلنا نفكر في الوصول إلى الهدف دون النظر إلى الوسيلة.

أحيانًا نفعل كل ما هو غير سوي بحجة أن الطريق لابد وأن يكون بهذا الاتجاه، ونتجاهل بأن حقدنا وطمعنا وغيرتنا هي من قادتنا إلى ذلك الاتجاه، وهكذا كان صفوان.

إذا أردت أن تغزوا بلدًا تحكم في سوقه وبيته.

قالها ريتشارد لبيتر وهما يتناولان القهوة اليمنية في صالون السمسرة التي يقيمان فيها بعد عودتهما من مجلس شهبندر التجار.

نعم يا بيتر، أمامنا مهمة عظيمة هنا في اليمن وسنسيطر على السوق وعلى البيت، نحن هنا لنسيطر على السوق، وستقوم سالي بمهمة السيطرة على البيت، خلال فترة بسيطة ستجد جنودنا العظماء يدخلون هذه البلاد دون صعوبات، ستجدهم هنا في كل مكان، ليس فقط جنودنا بل سنرسل لهم الفرق والخبراء، وصفوة أبنائنا، وسنزرع لهم العملاء لندبرهم ولنحكم قبضتنا حتى نستطيع أن نصنع وطنًا جديدًا دون منغصات.

بيتر: غير الوطن الذي سنصنعه في فلسطين؟

ريتشارد: لا، بل نحن بحاجة لأوطان نروضها كما نريد، ونسيرها لخدمتنا حتى نستطيع استعادة كل أمجادنا القديمة دون صعوبات.

إننا لن نستطيع إقامة وطن جديد دون أن نحميه من أي خطر خارجي.

لابد أن تكون هذه البلاد تحت سيطرتنا لننعم بالأمان هناك، والأمان لن يتحقق لنا ولا لأبنائنا إلا في امتلاك كل مفاتيح القوة في هذه البلاد بل وفي كل المنطقة، إن مفاتيح القوة ليست عسكرية فقط بل كذلك في إدارة تلك المناطق والسيطرة على كل ثرواتها، ومواقعها الاستراتيجية، وتوجهات شعوبها وأفكارهم، وعندها قد نقول بأننا في مأمن.

إن ذلك سيتحقق بعدة طرق مباشرة وغير مباشرة، والاحتلال العسكري هو أحد تلك الطرق المباشرة.

إننا تجاوزنا فكرة أن نحتل الأوطان فقط لزيادة مداخيلنا من ثرواتها ولنوسع رقعتنا الجغرافية حتى لا تغيب عنا الشمس، إن لدينا عقيدة لا نريد لها كذلك أن تغيب من على سطح هذه الأرض، نحن فقط من يحق لنا رسم ما نريده فوق هذه الأرض وكل ما فيها سخره الرب لنا دون غيرنا.

أخبر ريتشارد التاجر صفوان برغبته في التعرف على مزارعي البُن.

أخبره بأنهم لو سيطروا على هؤلاء المزارعين وقاموا بشراء المحاصيل منهم بسعر أكبر من تلك الأسعار التي يشتري بها بقية التجار فإن المزارعين سيعطونهم كل ما يزرعونه.

أخبره كذلك بأن لا يقلق من فرق الزيادة التي سيتم دفعها لأولئك المزارعين، فكل شيء مرتب، والمهم هنا هو السيطرة على سوق البُن في المخا، وأن يصبح صفوان هو التاجر رقم واحد فيها.

لكن الشيء الذي لم يخبر به ريتشارد صفوان هو أنه بعد ذلك وبعد أن يكسبوا ثقة المزارعين، سيقومون باستئجار تلك المزارع من أولئك المزارعين بعقد مدته ثلاثون عامًا بحجة إدخال طرق متقدمة في الزراعة، لزيادة المحاصيل، مقابل دفع قيمة أكبر للمزارعين، أو حتى عن طريق شراء تلك الأراضي إن أمكن، وعندها سيتحكمون بتجارة البُن في اليمن كلها بل وفي العالم وسيستطيعون تحقيق أهدافهم.

قام صفوان بتعريف ريتشارد وبيتر على المزارعين وقاموا بعمل زيارات لهم.

كان ريتشارد يتجول بين المزارع ويعطي نصائحه الزراعية للمزارعين وكأنه خبير بها، وكان يقوم بتقديم مساعدات لفقراء القرى التي يذهبون إليها.

ليس كافيًا حتى تنجح في مهمتك الاستخبارية بأن تركز على تنفيذ عملك على أكمل وجه، لابد من أن تقيم الكثير من العلاقات الاجتماعية حتى تكسب من حولك وتنجح.

أن تقترب من الناس، وتعالج مشكلاتهم.

أن تشعر بهم، وتتظاهر بذلك.

أن تستغل المال الذي معك لتشتري تعاطفهم لك وهذا ما كان ينفذه ريتشارد بدقة هنا في المخا.

كم هو مؤلم أن يكون المال وسيلة لاستغلال الفقراء لا لخدمتهم.

حاول ريتشارد بأن يدعم الأنشطة التي تقوم بها هدى ابنة التاجر عبدالودود، فقد سمع كثيرًا عن الأشياء التي تقدمها للناس هنا، وأن لديه الكثير من الأفكار التي يمكنه تقديمها لها، لكن عبدالودود كان يرفض ذلك ويقف له بالمرصاد.

كان يرفض ذلك لأنه يعلم جيدًا أن أمثال ريتشارد لا يقدمون شيئًا بالمجان، وأنه بالتأكيد قد تكون له أهدافًا من وراء ذلك.

كان دائمًا ما ينصح ابنته بأن تنتبه وتركز جيدًا وهي تدير عملها الخيري مع صديقاتها.

كان دائمًا ما ينصحها بأن لا تخلط أي أهدافًا أخرى بذلك العمل مهما كانت المغريات ومهما كانت حاجتها للدعم.

كان يقول لها دائمًا:

قبل أن نساعد الإنسان لابد لنا من أن نحميه أولًا يا ابنتي.

كانت هدى تستمع إلى والدها بكل تركيز وبكل حب، فهي تعلم جيدًا حجم خبرته في هذه الحياة.

مضت الأيام وريتشارد يجوب المزارع والنواحي.

ينتقل من مكان لآخر.

يتعرف على المزارعين في جولات ينظمها له صفوان ويرافقه فيها بيتر.

كان ريتشارد يدقق كثيرًا في كل جولاته التي يخرج إليها مع صفوان وبيتر ويهتم بها أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر.

بعد فترة استأذن ريتشارد صديقه صفوان بمغادرة المخا على أن يعود لهم بعد شهر لوجود مشاغل لابد له وأن ينهيها.

غادر ريتشارد مع بيتر ميناء المخا فهنالك أمور أخرى لابد وأن يتم الإعداد لها جيدًا.

كانت سالي سعيدة بالعمل في عيادة الدكتور حمدي.

كانت تذهب صباحًا مع منال إلى العيادة، فتقومان بترتيب المرضى، وتجهيز الأدوية.

لم يقتصر العمل على الجانب الصحي فحسب بل كانت كذلك تكتب عن حالة كل مريض الاجتماعية، وتفاصيل عنها، وكانت تعدهم بتقديم المساعدة والدعم اللازم.

كانت كثيرًا ما تذهب بعد نهاية عملها في العيادة إلى حيث يسكنون لترى بنفسها حالتهم المادية الصعبة، وتساعدهم بما تستطيع.

بدأ الجميع يعرف سالي ويحبها.

كانت تأتي دائمًا بالحلوى اللذيذة للأطفال، وكانت كذلك تهتم بفتيات المدينة، وتقدم لهن ما يناسب أعمارهن ويلبي احتياجاتهن.

كانت منال تساند سالي في كل الخطوات التي تقوم بها، وكانت تقص على والدها وعلى حمدي ما يحدث معهما من أحداث.

عزم العم صابر على أن يبني مقرًا أكبرًا للعيادة، حتى يستطيعوا تقديم الخدمات بشكل أفضل، وإضافةً إلى ذلك أراد بناء غرفتين لأنشطة سالي ومنال الاجتماعية.

أراد أن يبني لهما تلك الغرفتين حتى تعينهما على إدارة أنشطتهما بأريحية.

تم بناء الغرفتين بجانب العيادة فكانت إحدى الغرف بها مكتب لسالي وآخر لمنال، والغرفة الأخرى مخزن لتخزين المواد الغذائية وبعض الاحتياجات.

كم سعدت سالي بالغرفتين وبتوسعة العيادة لأنها رأت أن ذلك سيسهم في تقديم خدمة أكبر لأهل الحديدة وللفقراء فيها.

أحبت سالي أسرة العم صابر كثيرًا.

أحبت العم صابر لحبه لعمل الخير.

أحبت منال، تلك الفتاة التي تحب أهل مدينتها وأرضها ولا تتأخر عن تقديم أي مساعدة.

أحبت الدكتور حمدي، ذلك الشاب الذي يعطف على الفقراء ويعالجهم دون أن يسألهم عن النقود.

أحبت حسناء، تلك الفتاة التي تقدم لهم كل مساعدة.

كان الدكتور حمدي كذلك معجبًا بسالي وباهتمامها بالفقراء فكان يهتم بها وبأحوالها.

كان يوصي كل يوم شقيقته منال بأن لا تقصر معها في شيء، وأن تهتم بها، وتلبي طلباتها، وتتفقد احتياجاتها.

كانت سالي تعمل كل ذلك في ضوء عملها الاستخباراتي في الحديدة، لكنها في نفس الوقت كان بداخلها شعور يجعلها تعمل كل ذلك بحب تجاه أولئك الناس، وجنبًا لأسرة العم صابر الذين أحبتهم.

ذهب نشوان إلى عدن بحثًا عن ابن عمه سعيد.

قضى ليلته الأولى والثانية دون أن يجد له أثرًا.

بحث عنه في كل مكان.

الميناء.

التواهي.

كريتر.

سأل عنه في كل سمسرة يصادفها في طريقة.

في الليلة الثالثة وبينما هو في أحد مقاهي عدن تفاجأ بابن عمه سعيد.

تعانقا.

قص سعيد على نشوان كل شيء.

لامه نشوان، وأخبره بأنه كان يجدر به العودة إلى القرية وليس الهروب.

الهروب من مواجهة الواقع جُبن.

هي جريمة يقترفها الإنسان في حق نفسه.

زيادة آلام وسجن، بل هو حبل مشنقة يلفه ذلك الإنسان على نفسه.

يصبح كالأسير لذلك الهروب ولن تصبح الحياة هي الحياة.

هي غربة يعيشها ذلك الهارب كان مذنبًا أو حتى بريئًا.

طلب نشوان من ابن عمه سعيد أن يعود معه إلى القرية ويقص كل ما حدث معه بالضبط وكيف أن سفيان سقط دون أن يدفعه أحد.

رفض سعيد فكرة العودة في هذه الفترة لأنه ومن خلال مكوثه في عدن الأيام الماضية رأى بعض الأمور والتي قد تنذر بخطر ما لكنه لا يعرف حجم ذلك الخطر.

نعم، قد أعود معك يا نشوان وأثبت براءتي وأسلم من الإعدام، لكن ما الذي سيحدث لليمن بعد ذلك؟

نشوان: ماذا تقصد يا سعيد؟

سعيد: وجدت رجلين ملامحهما أوروبية، يجلسان في المقاهي.

نشوان: ذلك أمر طبيعي، فعدن يفد إليها الكثير من الأجانب بحكم موقعها فالكثير من السفن تمر بها في طريقها.

سعيد: لكن تصرفاتهما مريبة يا نشوان وكأنهما يريدان فعل شيء ما.

نشوان: ماذا يريدان بالضبط؟

سعيد: لا أعلم، لكن لابد لي من متابعتهما، لا تقلق يا نشوان سأثبت براءتي لكن لابد لي أولًا من أن أعرف حقيقة وجودهما، لابد من متابعتهما، قد يكونا عابرين وقد يكون الأمر مختلفًا، لكنني متأكد من وجود شيء مريب.

نشوان: حسنًا.

سعيد: لا تخبر أحدًا في القرية أنك وجدتني هنا.

نشوان: كما تريد، ولكنني سأتحدث مع حمدي عن ذلك، سأعود لاحقًا لزيارتك.

كان وجود الرجلين الأوربيين في عدن مثيرًا لقلق سعيد.

كانا يأتيان إلى المقهى الشعبي لشرب الشاي والقهوة والحديث مع أبناء المنطقة، ثم التجول في عدن وقراها.

لم تكن تصرفاتهما توحي بأنهما سائحين أو عابرين رغم وجود الكثير من الأجانب الذين يأتون إلى عدن سياحةً أو مرورًا عندما ترسوا سفنهم على الميناء لأي سبب.

يا ترى لماذا هما هنا؟

ما الذي يريدانه بالضبط؟

أخذ سعيد يسأل نفسه ويقول:

لابد وأن هنالك سر، ولابد لي أن أعرفه.

غادر نشوان عدن وتوجه إلى الحديدة مباشرة حتى يطمئن الدكتور حمدي، وحتى يلحق بحمدي قبل أن يتوجه إلى صنعاء للبحث عن سعيد.

ما أجمل صنعاء..

ما أجملها في جوها الساحر، وما أرق عناق جبالها للسحاب الأبيض المتناثر على سماء صافية في رومانسية تسر الناظرين، بها جبل النبي شعيب، وهو أعلى قمة في شبه الجزيرة العربية والشام، والذي يتجاوز ارتفاعه 3760م عن مستوى سطح البحر.

ليس للمطر موعد مع صنعاء، فهو أحد ساكنيها، لا تشعر به إلا حين هطوله، ثم يذوب في أعماق أرضها حبًا كعائد إلى مسكنه وكأن شيئًا لم يكن.

مدينة تشعرك بالدفء رغم برودة طقسها بروعة ساكنيها وبساطتهم.

كل شيء في صنعاء يدعوا للحياة.

يدعوا للجمال.

عند باب اليمن يلتقي كل شيء.

مآذنها، ومقاهيها.

دكاكينها التي تجمع التراث بالصناعات الحديثة، واليمنيين بمختلف لهجاتهم ومناطقهم، لتشعرك بأن صنعاء بيت اليمن الكبير.

فضل حمدي تناول القهوة في أحد مقاهي صنعاء عند باب اليمن قبل الذهاب لصديقه الدكتور سامي والذي قد يكون مشغولًا في المركز الصحي بصنعاء وما هي إلا لحظات ويدخل سامي إلى نفس المقهى لتناول القهوة.

سامي: حمدي، أنت هنا؟

حمدي: سامي، لقد اشتقت لك.

تعانق الصديقان، وتناولا القهوة، ثم ذهب حمدي مع سامي لشراء بعض احتياجات العيادة، وتناقشا في الطريق عن اختفاء سعيد.

أخبره سامي بأنه لم يراه أبدًا في شوارع صنعاء، وأنه سيبحث عنه إلى أن يجده.

عند الظهيرة أخذ سامي حمدي إلى منزله لتناول طعام الغداء.

كم هي السفرة الصنعانية رائعة، فالأكل اليمني في كل منطقة من مناطق اليمن له طعمه الرائع الذي يجعلك تنسى برنامجك الغذائي حتى لو كنت طبيبًا.

مُلَوَح، وفحسة، وسلتة، وشفوت، وكباب صنعاني، وبنت الصحن.

تناول الصديقان الغداء، ثم خرجا للتنزه قليلًا عند سفوح أحد جبالها الخضراء التي تجري من بينها شلالات أمطارها.

جلس الصديقان وتبادلا الحديث إلى أن غادر بعدها حمدي صنعاء عائدًا إلى الحديدة.

وصل نشوان إلى الحديدة، وأخبر الدكتور حمدي الذي وصل قبل ساعات من صنعاء بكل شيء.

أخبره بأنه وجد سعيداَ، وأن سعيد يرغب بالمكوث في عدن لأنه بدأ يشك في تواجد رجلين أوربيين.

صحيح أن السعي لتحقيق المكتسبات أمر مهم وضروري لأي إنسان، لكن أحيانًا قد تكون هنالك مصالح أكبر لابد لنا من تحقيقها أولًا قبل أي شيء آخر.

قد يكلفنا ذلك الكثير.

قد نتألم.

قد ندفع ثمن ذلك، لكن الثمرة التي سنجنيها في النهاية ستعوضنا عن كل ما عانيناه ونحن نجد أن ما قمنا به أنقذ حياة الكثيرين ممن هم حولنا وجلب لهم السعادة.

ونحن نجد أن ما قدمناه لو تركنا فعله لأجل تحقيق مصلحة ذاتية لبقي كل أولئك الذين هم من حولنا في معاناتهم، وعندها لن نجد لسعادتنا قيمة.

إن قيمة السعادة تكمن في المشاركة، وقيمة النصر تكمن في نتيجته.

أوصى حمدي نشوان بمتابعة سعيد ووعده بالمساعدة قدر المستطاع في كل أمر يصادفهما.

عاد نشوان إلى قريته في تعز ووعد والده بمواصلة البحث عن سعيد وأنه يثق في براءته.

بعد أن غادر ريتشارد ميناء المخا توجه مباشرة إلى الحديدة، وبالتحديد إلى نفس المكان الذي ترك فيه سالي عند نزولها إلى الحديدة أول مرة.

كان الرابع من فبراير، وهو اليوم الذي حدده ريتشارد لسالي قبل نزولها من السفينة ليلتقي بها، ويعرف منها مستجدات ما قامت به.

في صباح اليوم الموعود كانت سالي على الموعد تنتظر وصول سفينة ريتشارد وبيتر.

وصلت السفينة، ونزل منها ريتشارد وبيتر.

ريتشارد: مرحبًا سالي، كيف حالك؟

بيتر: كيف حالك يا سالي؟

سالي: بخير.

ريتشارد: كيف هي أخبار الحديدة؟

سالي: كل شيء على ما يرام وكما هو مرسوم في الخطة، لقد قمت بالكثير من الأعمال للناس هناك، ولقد أحبني الجميع، أرفقت لك قائمة بحالات الناس، وأوضاعهم المادية، واهتماماتهم.

ريتشارد: ممتاز، كنت أعرف مسبقًا أنكِ ستنجحين، أريد أن تتوسع نشاطاتكِ لتشمل المناطق المجاورة، قومي كذلك بتفعيل برامج المرأة كما هو مخطط.

سالي: هل أبدأ الآن في تفعيل برامج للمرأة؟

ريتشارد: نعم، نريد أن تشعر باستقلاليتها لتتمرد على الرجل، أشعريها بأن الرجل قيد لابد وأن تكسره.

علميها كيف تعمل وتكسب قوتها بعيدًا عن الرجل لتستغني عن احتياجها له، لا أب، ولا أخ، ولا زوج، ولا حتى ابن.

اجعليها بين الرجال بلا خجل أو حياء.

نعم، انزعي حياءها واجعليها تتصرف كما تريد، ولتشعر بأن من يمنعها من ذلك هو عدو لها، متدخل في خصوصيتها.

قومي بكل البرامج التي تساعدكِ لأن تشعر المرأة بذلك.

هنالك أيضًا مجموعة برامج للأبناء لإشغالهم بالملهيات، والترفيه الفارغ بعيدًا عما يتعلموه الآن.

اعقدي لقاءات مع من يعلمهم، واقترحي برامج بعيدة عن دينهم، وبعيدة عن تفتيح عقولهم، وأخبريهم بأن تلك البرامج والأفكار نجحت في أوروبا وطورتهم هناك.

ابعديهم عن علوم الأحياء، واللغة، والحساب، والتاريخ، حببيهم في اللهو، والتعليم البعيد عن العقول، قللي احترامهم بمعلميهم.

هذا سيساعدنا كثيرًا في السيطرة على البيت وانحلال المجتمع، فنحن نريد أن ننهي الكثير من الأمور في أقرب فرصة حتى ندخل عدن بكل سهولة كخطوة أولى لاحتلال البلاد كاملة.

سالي: حسنًا.

ريتشارد: في هذه الحقيبة كل البرامج والندوات، وكذلك بعض الأموال، والتي ستساعدكِ في تنفيذ كل ما هو مطلوب منكِ، نظمي عملكِ جيداَ، واستغلي المبنى الذي بناه لكِ صابر ليكون منظمة تنطلقين من خلالها.

سالي: حاضر.

ريتشارد: عودي الآن، وفي حال استجدت أمور سأرسل لكِ رجل اسمه عمار، وسيخبركِ بما هو مطلوب.

سالي: حسنًا.

عادت سالي بعد أن أخذت التعليمات من ريتشارد.

يعرف ريتشارد جيدًا أو بمعنى أدق من يقف خلف ريتشارد بأن الانتصار في ميدان أي معركة يبدأ من البيت ومن السوق.

عندما يتحكم العدو في المنزل وفي السوق فإنه سيكون صاحب الطلقة الأخيرة في المعركة.

لن تنتصر أمة استطاع أعداؤها غزو بيوتها.

لن تنتصر أمة كان لعدوها الكلمة العليا في أسواقها، في صناعة غذائها، وإدارة صادراتها، ووارداتها.

دخلت البلاد في تحد كبير مع المحتلين.

نعم، هم محتلين، فليس شرطًا أن تكتمل أركان الاحتلال بدخول أول جندي للعدو، بل يكفي دخول العملاء وتحكمهم في صناعة القرار.

اتجه ريتشارد بعد ذلك إلى مصر ليلتقي بشخص اسمه مزراحي.

اتجه إلى مصر بعد أن رتب كل شيء مع سالي، وفرحًا بما حققت خطته من تقدمات مهمة.

عادت سالي بعد لقائها بريتشارد إلى العيادة مباشرة ودخلتها، لكنها لم تجد أحدًا بها.

أخذت تبحث عن منال أو عن الدكتور حمدي هنا وهناك، ثم ذهبت إلى البيت بعد ذلك وسألت حسناء عنهما.

سالي: أين منال يا حسناء؟

حسناء: لقد ذهبت إلى السوق مع حمدي، أراد أن يشتري لها بعض الهدايا.

سالي: شيء جميل، سأنتظر منال في الغرفة.

كان شيئًا مستغربًا من سالي وهي ترى اهتمام شقيق بشقيقته وحرصه على إسعادها.

جميل هو المجتمع الشرقي.

كانت تقول في نفسها تلك الكلمات، وكانت كذلك تسأل نفسها:

هل من المعقول أن أكون سببًا في تغيير عادات هذا المجتمع الذي يقدر المرأة؟

إن المرأة مكرمة عندهم ولا تعاني من الإهمال.

الكل هنا يحترمها، ويقدرها، ولها الكثير من الحقوق منذ ولادتها إلى أن تموت، من قبل والدها، وشقيقها، وزوجها، ثم أبنائها.

بل حتى لو لم يكن لها أحد فإن الحاكم مُطالب بتخصيص دخل لها من بيت المال دون أن تعمل.

إنها تعيش بتقدير لا نجده في مجتمعاتنا.

إنه مجتمع بني على الحب وعلى التقدير بين رجاله ونسائه، وبين الصغير والكبير، ولذلك هل من المعقول أن أسعى إلى تغيير هذا المجتمع برجاله، ونسائه، وصغيره، وكبيره؟

كذلك تعليم هؤلاء الأبناء يختلف كثيرًا عن التعليم الذي تعلمته أنا في المدرسة.

إن تعليمهم يحث على الأخلاق، والمبادئ، والاحترام، فكيف تأتي من هي مثلي والتي كان تعليمها لا يدعوا لشيء من ذلك لتغير تعليمهم؟

أخذت تفكر وتفكر إلى أن نامت.

عادت منال من السوق وأيقظت سالي لترى الأشياء التي اشتراها لها حمدي، واشترى كذلك مثلها لحسناء.

كان تريها الأشياء وهي سعيدة بها.

أخرجت منال قطعة جميلة للباس تهامي رائع وأعطته لسالي وقالت لها بأنه هدية منها أرادت أن تقدمه لها.

فرحت سالي كثيرًا بالهدية، وأعجبت بها جدًا، وشكرت منال على المفاجأة الرائعة.

نامت سالي، ونام الجميع بعد أن اتفقت سالي على أن تخرج مع منال للمشي على رمال البحر قبل غروب شمس الغد بعد أن تنتهيا من أعمالهما.

ما أجمل غروب الشمس على شاطئ الحديدة.

ما أجمل قرص الشمس وهو يختفي داخل البحر.

منظر رائع لم تحب أن تفوته سالي ولا منال.

كانت سالي تحب أن تمشي على شاطئ البحر حافية كعادتها دائمًا منذ أن كانت في أوروبا، وهكذا فعلت منال.

أخبرت سالي منال بإعجابها بشاطئ الحديدة، ومياهه الصافية الشفافة:

إن الحديدة هي عروس البحر الأحمر يا منال.

منال: نعم يا سالي، إن البحر هنا هو متنفسنا، نخرج إليه، ونستمتع بنسيمه، إن بيننا وبين البحر هنا قصة حب رائعة.

سالي: صحيح يا منال، إن الإنسان عندما يتضايق يأتي إلى البحر ليرمي فيه همومه.

منال: الإنسان منا بحاجة إلى أن يخرج من جدوله اليومي ليستمتع بالطبيعة الخلابة، لدينا هنا في تهامة بحر رائع، ورمال ذهبية، ومسطحات خضراء جميلة، وجبال خلابة.

لقد جمع الله لنا كل ذلك هنا في تناسق نادر.

سالي: إن بلادكم جميلة يا منال، كل منطقة في اليمن هنا رائعة، لديكم البحر والجبل، وبين البحر والجبل خضرة رائعة.

منال: هل أحببتِ اليمن يا سالي؟

سالي: وكيف لا أحبها، لقد أحببتها مثل ما تحبونها أنتم، وجدت فيكم عشقكم لها وحرصكم على خدمتها وخوفكم عليها.

منال: ليس منا من لا يحب أرضه، هي سكن لنا وستر علينا، نحن نعدكِ واحدة منا يا سالي.

أخذت الفتاتان تتحدثان في الكثير من الأمور، وبينما هما تمشيان على شاطئ البحر بلباسهما التهامي الرائع ومرتديتان القبعة التهامية تعرضت سالي لجرح في قدمها مما أدى لنزيف سببه أن قوقعة مكسورة على الشاطئ أصابتها.

أخذتها منال إلى العيادة مباشرة، وقام حمدي بعلاجها.

كان القلق واضحًا على حمدي وكأن المصاب جلل، رغم أنه نزيف بسيط يذهب بتطهير موضع الجرح لا أكثر.

قام حمدي بوقف النزيف وتضميد الجرح، وأوصاها بالراحة.

عادت سالي إلى المنزل مع منال وأكملت يومها في الجلوس معها ومع وحسناء.

أحست سالي بحب حمدي الكبير لها، وكانت تبادله نفس الشعور.

كان يهتم بها كل يوم ويسألها عن جرحها، وكانت تتظاهر بأنه مازال يؤلمها قليلًا، رغم أنه لم يعد له أثر.

كان يوجه لها النصائح باهتمام، وهو يعرف أصلًا بخبرته الطبية أن الألم زال أثره منذ أن خرجت من العيادة، ويعرف أنها تعرف بأنه يعرف أنه لم يعد يؤلمها.

اخذ الاهتمام يكبر شيئًا فشيئًا، وكانت منال تلاحظ ذلك.

ما أجمل الحب أن يكون عفيفًا.

الحب لا يعني تجاوز المحظور، ولن يزيد قيمته ذلك التجاوز، بل سينهيه، ويزيل أثره، فكل ما كان بعيدًا عن رضى الله لن يستمر.

ما أجمل أن يكون الحب وفق مراد الله.

جمال الحب في عفته.

الحب شعور.

أن تحب أحدًا يعني أن تسعد لما يسعده.

هناك من يحبك لأنه يريد أن يحبك، وهناك من يحبك لأنه يحبك، وشتان بينهما.

الحب لا يجعلك تبحث عن السعادة، بل يجعلك تعيشها، فمن يبحث عن السعادة سيجدها حينما يرضي نفسه، ومن يعيشها سيعيشها طالما يجد من يحب سعيدًا.

الحب تضحيات وليس تنازلات فالتنازلات يقدمها الإنسان مضطرًا بينما التضحيات يقدمها الإنسان بحب.

إن للحب معاني سامية لن نصل إليها طالما أننا لم نفهم معناه.

التقى ريتشارد بمزراحي في القاهرة، وعقد معه لقاءً في أحد المقاهي الشعبية هناك، وأخذا يتبادلان الأحاديث، ويتفاهمان بخصوص المرحلة المقبلة من الخطة.

كان الإرهاق يبدوا واضحًا على مزراحي بسبب عناء السفر، حيث أنه لم يصل إلى القاهرة إلا قبل أقل من يوم بعد رحلة برية مر من خلالها بالمغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، لإنهاء بعض الأمور في طريقه، لكنه كان مصرًا على سرعة إكمال تنفيذ الخطة والذهاب إلى المخا.

كان مزراحي حريصًا على أن يكون له موضع قدم في كل مكان يذهب إليه.

انفض الاجتماع، واتجه بعد ذلك ريتشارد ومزراحي ومعهما بيتر برًا نحو البحر.

استقل مزراحي سفينة ريتشارد وتوجه الجميع إلى المخا، وما إن وصلت السفينة إلى ميناء المخا حتى توجه الجميع إلى وكالة التاجر صفوان.

رحب بهم صفوان، وقام ريتشارد بتقديم مزراحي إلى التاجر صفوان وتعريفه به.

ريتشارد: أحب أن أعرفك على صديقي مزراحي، إنه تاجر قطن كبير في أوروبا وتجارته واسعة هناك، بل ووصلت تجارته إلى بعض بلاد المغرب، وكذلك مصر، والسودان، سيقوم بشراء الكثير من البُن هنا، وسيقوم بافتتاح معمل للصناعات القطنية في المخا بعد أن يستورد القطن من مصر.

صفوان: رائع جدًا، سيكون من الجميل أن يفتتح معملًا للصناعات القطنية هنا.

ريتشارد: لقد اخترتك دون تجار المخا لتكون شريكًا له، ويكون شريكًا لك.

صفوان: اشكرك صديقي ريتشارد.

في هذه الأثناء كان شهبندر التجار جالسًا في مجلس حاكم المخا عندما دخل التاجر عبدالخالق ليخبرهما بعودة ريتشارد وبيتر ومعهما رجل آخر، وهم جميعًا الآن عند التاجر صفوان.

شهبندر التجار (التاجر عبدالودود): وجود ريتشارد يا حاج مسعود غير مطمئن.

الحاج مسعود: بماذا تفكر يا عبدالودود؟

عبدالودود: لا أدري، لكنني غير مرتاح لوجوده.

الحاج مسعود: المخا مدينة يقصدها التجار من كل بلاد العالم، وحضور ريتشارد أمر طبيعي.

عبدالودود: نعم لكن ليس بهذا الشكل، إنه يتجول في كل مكان في المخا وكأنه يريد أن يشتريها، لا أن يشتري البُن.

الحاج مسعود: ثق يا عبدالودود أنني لن أسمح لأي غريب بالعبث بالمخا، وفي نفس الوقت لابد من أدلة لأي أمر يسيطر على تفكيرك.

عبدالودود: صحيح، لكن كذلك لابد من الحذر، الحذر يا حاج مسعود.

بعد أن تناول مزراحي الغداء في بيت صفوان هو وريتشارد وبيتر أراد مزراحي الذهاب إلى حيث مزارع البُن، ليرى المزارع بنفسه ويشاهد طرق زراعة اليمنيين للبُن، ومن جهة أخرى أراد أن يحضر تفاوض صفوان مع المزارعين على شراء المحاصيل، خاصة وأن موسم حصاد البُن قد اقترب.

اتفقوا على الانطلاق صباح الغد مع الفجر إلى حيث المزارع بعد أن ينال مزراحي وريتشارد وبيتر قسطًا من الراحة.

كان الاتفاق على أن يشتري صفوان المحاصيل لكن لا يظهر مزراحي في الصورة على أنه شريك، بل كتاجر يبحث عن مكان ليقيم عليه معملًا للصناعات القطنية.

واتفقوا كذلك على أن الشراء من المزارعين سيكون بسعر مضاعف عن الأسعار التي يشتري بها التجار عادة تلك المحاصيل، حتى يستطيعوا شراء كل الكمية من أولئك المزارعين، دون أن ينافسهم أحد.

جاء الصباح، وانطلق صفوان، وريتشارد، وبيتر، ومزراحي إلى مزارع البُن.

مروا بالكثير من المزارع في تعز، حتى مروا بقرية المصافدة.

رحب بهم الشيخ راجح ترحيبًا كبيرًا، وعرفهم على مزارع البُن.

سعد المزارعون بهذه الزيارة خاصة عندما علموا بالمبالغ التي سيتم دفعها لمحصول كل مزرعة، وسعدوا أكثر عندما لاحظ ريتشارد قلة المياه في قرية المصافدة والذي وعدهم بدراسة ذلك، ومعالجة الأمر، حتى تتحسن أوضاع القرية.

أراد التجار الانتقال بعد ذلك إلى قرية المخاولة بحكم قربها.

حاول الشيخ راجح ثنيهم عن الذهاب إلى المخاولة، ولاحظ ريتشارد ذلك فسأله مباشرة: ولم لا نذهب إليهم طالما أنهم يمتلكون مزارع، ويستطيع صفوان شراء محصولهم؟

صفوان: لا شيء يا صديقي، سأخبرك لاحقًا **(قالها بصوت خافت).**

ذهب صفوان وضيوفه إلى قرية المخاولة، والتقوا هنالك بالشيخ حسان، ومزارعي القرية.

كان اللقاء جميلًا وكما هو مخطط له، وسعد المزارعون في القرية بالعرض الذي قدمه لهم صفوان ووافقوا أن يبيعوا له محصول البُن.

أراد صفوان بعد ذلك أن يتوجه هو وريتشارد ومن معه إلى إب، تلك المدينة الجميلة بمسطحاتها الخضراء.

الرائعة بجبالها التي تعانق السماء.

والساحرة بشمسها التي لا تُرى رغم حضور نورها.

استمتع الجميع بزيارتهم لمدينة إب والتي لم يشاهدوا مثلها حتى في أوروبا.

التقوا في إب ببعض المزارعين هناك، واتفقوا معهم على شراء محاصيل البُن.

بعد أن أنهوا رحلتهم إلى إب عاد الجميع بعد ذلك إلى المخا بعد غياب دام عدة أيام وبعد أن اتفقوا على الذهاب إلى البيضاء والضالع وبعض المناطق الأخرى في رحلتهم القادمة.

في طريق عودتهم إلى المخا قص التاجر صفوان على ريتشارد المشكلة التي حصلت بين المصافدة والمخاولة، وآثار هذه المشكلة على القريتين.

ابتسم ريتشارد وواصل طريق عودته.

انتشر بين تجار المخا خبر زيارة صفوان والأجانب إلى مزارع البُن فسارعوا بالذهاب إلى شهبندر التجار التاجر عبدالودود ليقدموا شكواهم له عن نية صفوان في شراء كل المحاصيل بأسعار مضاعفة، فالخبر نزل عليهم كالصاعقة.

التاجر عيدروس الحضرمي: هل سمعت يا شيخ عبدالودود بخبر اتفاق صفوان مع المزارعين على شراء جميع المحاصيل؟

الشيخ عبدالودود: نعم سمعت.

التاجر عثمان السوداني: وماذا نفعل يا شيخ عبدالودود؟

التاجر يوسف المغربي: في ذلك خطر علينا يا شيخ عبدالودود، وعلى تجاراتنا.

التاجر شاهين التركي: لا بد من أن نخبر الحاكم بذلك ليضع حدًا لكل ما حدث.

التاجر عبدالودود: نعم، لن أقبل بذلك ولن أسكت.

التاجر شمسان: نحن معك جميعًا يا شيخ عبدالودود في أي أمر تراه.

التاجر عبدالودود: هذا ما أريده منكم بالضبط، لا بد أن نكون جميعًا يدًا واحدة في مواجهة أي خطر يصيب تجارتنا ويضر بالمخا، أعدكم أن أبذل كل جهد من أجل حمايتكم.

وعدهم الشيخ عبدالودود بعدم السكوت وعقد اجتماع بين التجار والحاكم لوضع حد لكل ذلك، خاصة وأن ما فعله صفوان يخالف العرف بين تجار المخا.

بعد أن غادر التجار قرية المصافدة أخذ نشوان والذي كان حاضرًا ذلك اللقاء بعد عودته من الحديدة يفكر ويسأل نفسه:

يا ترى لماذا جاء التجار الأجانب في هذه الفترة؟

هل هنالك علاقة بين هؤلاء التجار وبين الأجانب الذين رآهم سعيد في عدن؟

ما قصة سالي في الحديدة؟

قرر نشوان الذهاب إلى عدن والالتقاء بسعيد من أجل معرفة بعض التفاصيل.

أحيانًا تجتمع مجموع من الخيوط لتوصلنا إلى بداية الطريق، ومن الخطأ هنا أن نهملها.

كم من الأمور التي تضررنا بسببها وأوقعتنا في المآسي فقط بسبب أننا تجاهلنا تساؤلاتنا.

بسبب أننا لم نلقي بالًا لما يحدث حولنا.

نقول بأن كل شيء لا يدعوا للقلق، حتى تقع المصيبة، وقد نعجز عن حلها، وعندها لن يفيد الندم.

لنهتم لتساؤلاتنا وقلقنا حتى لاندفع ثمن لا مبالاتنا.

لنقاتل من أجل الوقاية، فالعلاج أحيانًا قد يكلفنا حياتنا.

هل يا ترى أستطيع أن أقدم للفتيات هنا أكثر مما يقدمه لهن أهاليهن؟

هل فعلًا ينقص الفتيات هنا ما يشعرهن باستقلاليتهن؟

عشت في أوروبا جل سنوات عمري ولم أجد احترامًا للمرأة مثل الذي وجدته هنا في الحديدة؟

هل نسيت كلمات جدتي عندما زرت دمشق وأنا طفلة مع والدتي؟

هل نسيت كلماتها لوالدتي عندما قالت لها عامليها معاملة شرقية لتشعر بقيمتها؟

لماذا نحن هنا؟

هل نحن هنا لننتقم من النساء لأنهن الأفضل؟

هل يمكن أن نحتل البلاد دون أن نغير ثقافتها؟

ولماذا نحتل البلاد أصلًا؟

أخذت سالي تسأل نفسها تلك الأسئلة وهي تنظر إلى أوراق بها بعض الأنشطة المطلوب منها تنفيذها لفتيات الحديدة.

أخذت تسأل نفسها وتفكر في أسرة العم صابر.

في منال.

في حسناء.

في الدكتور حمدي.

نعم حمدي الذي أحبته وأحبت معاملته لمنال وحسناء.

أحبت المجتمع هنا والذي جعل من المرأة شريكة فيه.

إن الأوراق التي أمامي هي أشد قتلًا من بارود البندقية.

إن بارود البندقية قد يقتل شخصًا واحدًا وهذه الأوراق ستقتل المجتمع ببرامجها التي تستهدف هدم المرأة والأبناء وبالتالي الأسرة والمجتمع.

قالتها وهي تنظر إلى تلك الأوراق إلى أن دخلت عليها منال.

ما بكِ يا سالي؟

سالي: لا شيء يا منال.

منال: عيناكِ تقول غير ذلك.

سالي: أفكر في بلدي.

منال: لم تحدثيني عنكِ وعن أسرتكِ.

أخذت سالي تقص على منال عن حياتها وعن كل شيء، طبعًا هي لم تخبرها عن حقيقة وجودها، وعن عملها كضابطة في المخابرات.

كانت تقص عليها، وكانت منال تستمع بحماس.

أخبرت منال شقيقها حمدي عن سالي.

حمدي: لها جذور عربية إذًا؟

منال: نعم، جدتها لأمها من سورية كما أخبرتني.

حمدي: إنها رائعة بأعمالها التي قدمتها هنا.

منال: نعم، إنها تبذل الكثير، وتقدم دون مقابل.

حمدي: كم هي رائعة.

منال: أراك تهتم بها كثيرًا، هل تحبها يا حمدي؟

حمدي: ماذا تقولين يا منال!

منال: أعرفك جيدًا يا حمدي.

كان واضحًا على حمدي اهتمامه الكبير بسالي، وكانت منال تعرف ذلك جيدًا، بل وكانت تلاحظ ذلك على سالي أيضًا.

من الصعب إخفاء المشاعر مهما حاول الإنسان ذلك خاصة لو كانت مشاعر حب، فالحب من الصعب إخفاؤه.

الحب لا يجيد الاختباء.

مهما حاول الحب التخفي فالمواقف تظهره.

الشوق والاهتمام وكل شيء، بل وحتى التظاهر باللامبالاة تكشفه، فقط لأنه الحب.

أخذ ريتشارد يفكر في استغلال الخلاف بين المصافدة والمخاولة لصالح أهدافه في المنطقة.

أحيانًا تخدمك الأحداث لتحقق لك ما تريد.

أشياء لم تكن في الحسبان، لكنها تتقدم بك لخطوات.

في ليلة الجمعة ولأن الجمعة هو يوم يستعد فيه الجميع للصلاة ولا يفتحون دكاكينهم أو يخرجون لتجارتهم، أراد ريتشارد الخروج للصيد مع بيتر ومزراحي، أو هكذا خطط.

خرجوا باتجاه قرية المصافدة إلى أن وصلوا لها عند خروج المصلين من صلاة الجمعة.

الشيخ راجح: مرحبًا ريتشارد، مرحبًا بكم جميعًا، جئتم في وقتكم، أنتم مدعون للغداء عندي.

ريتشارد: شكرًا لك، لقد خرجنا للصيد، ومررنا بجانب قريتكم، وأحببنا أن نسلم عليكم.

الشيخ راجح: لا وقت للانتظار، لنذهب للديوان ونتناول طعام الغداء قبل أن يبرد.

ذهب الجميع لتناول طعام الغداء مع كبار القرية، ثم جلسوا وشربوا القهوة وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث.

ريتشارد: قريتكم رائعة، وجوها عليل، وكل مقومات الزراعة متوفرة فيها، لكنني استغرب كيف أن محصولكم من البُن أقل بكثير من التي تنتجها القرى المجاورة.

الشيخ راجح: نعاني منذ فترة من قلة مصادر المياه.

مزراحي: قلة مصادر المياه!

الشيخ راجح: نعم، قد تستغربون ذلك رغم وجود وادي ووجود سد، وقد أخبرناكم عن ذلك في زيارتكم السابقة.

منصور راجح: حصلت قضية قتل قبل فترة لأحد أبناء قرية المخاولة من قبل أحد أبناء قريتنا، لقد قتل ابن عمي سعيد أحد أبنائهم في رحلة صيد، وأظن أن القتل حدث خطأً، فَهُم أصدقاء.

هنا يهمس مزراحي لريتشارد: لابد لسعيد أن يموت.

مزراحي: ولماذا لم يرفعوا أيديهم عن السد بعد أن أخذوا بثأرهم وقتلوا سعيد؟

الشيخ راجح: وهل قتلوا سعيد؟

مزراحي: سمعت ذلك منذ فترة عن طريق تجار أعرفهم جاؤوا للمخا، بأن إحدى القرى أخذت بثأرها، وانتقمت لنفسها، وقتلت شخصًا اسمه سعيد.

الشيخ راجح: ماذا تقول؟ الويل لهم.

محمود راجح: عرفنا الآن سر اختفاء سعيد وعدم عودته إلينا حتى هذه اللحظة.

مزراحي: الهدوء والحكمة يا رجال، فكروا كيف ستتصرفون بهدوء، هذا أفضل.

غادر ريتشارد ومزراحي وبيتر قرية المصافدة بعد أن أشعلوها غضبًا، وأخذوا يتسامرون ويضحكون في طريق عودتهم إلى المخا.

بيتر: لقد أشعلتها حربًا بينهم يا مزراحي.

ريتشارد: أنت داهية من دواهي العالم يا مزراحي.

مزراحي: هكذا سنتفرغ لخطتنا، وسنشتت تفكيرهم عن التركيز لما سنفعله بهم.

ريتشارد: بالتأكيد يا مزراحي.

لم يهدأ بال المصافدة في تلك الليلة.

سيطر الغضب على رجالها ورفضوا حتى إقامة العزاء إلى أن ينتقموا من المخاولة.

كل شيء في القرية كان ينذر بحرب.

البكاء في منزل أسرة سعيد على فقدان ابنهم، والرجال في ديوان الشيخ راجح بانتظار ما يريدون فعله.

هم بين قرار مهاجمة قرية المخاولة، وبين إرسال وفد ببنادقهم إلى الوادي وكسر سيطرة المخاولة على الماء والحديث بعد ذلك معهم حول قتلهم لسعيد دون الرجوع للشرع.

أخذوا يتناقشون فيما بينهم إلى أن رأى عقلاء القرية بالتوجه ببنادقهم إلى الوادي وكسر سيطرة المخاولة على الماء والحديث معهم حول قتلهم لسعيد دون الرجوع إلى الشرع ودون العودة إلى الشيخ راجح.

حتى تنجح وتسير خطتك بعيدًا عن أي منغصات لابد أن تشعل النيران بين جميع الأطراف التي تقلقك حتى تلهيهم عن مواجهتك أو أن يفكروا بما ستفعل لتدميرهم.

ستنجح في تشتيتهم، وتشتيتهم هنا يعني أنه سيسهل عليك قيادتهم كما تريد.

إنها مبادئ خبيثة للسيطرة على الخصوم، وتنفيذ ما تريد من خطط لتقضي عليهم.

وصل نشوان إلى عدن للقاء سعيد وإخباره عن الأجانب الذين رآهم في القرية وفي الحديدة، وأن ذلك قد يكون له ارتباط بالأجانب الذين رآهم سعيد في عدن، خاصة وأن الأجانب الذين جاءوا إلى القرية من المخا بالتأكيد لهم أهداف من خلال حضورهم مع التاجر صفوان ومتابعتهم لمفاوضات شراء صفوان لكل المحاصيل، رغم أن صفوان لم يسبق وأن اشترى كل محاصيل البُن لوحده.

أخذت الحيرة تسيطر على سعيد:

لابد من وجود شيء مشترك بينهم، هل لاحظ غيرك هذا الأمر يا نشوان؟

نشوان: لا، ولم أخبر أحدًا بذلك.

سعيد: خلال مكوثي هنا الفترة الماضية ومراقبتي للأجانب وجدت أنهم يعملون دراسات على عدن، مداخلها ومخارجها، أسواقها، مساجدها، وكل شيء عن الناس، ويسجلون كل معلومة بخصوص ذلك وبدقة.

نشوان: هل لاحظ السكان ذلك؟

سعيد: لا أظن، بل أنهم ذهبوا كذلك إلى لحج وكأنهم سياح وتجولوا بها عدة أيام.

نشوان: والحل يا سعيد؟

سعيد: اذهب إلى حمدي، وأخبره برغبتنا في اللقاء به، وإقامة اجتماع وليكن خارج الحديدة للسرية، وحتى لا ألتقي بأحد يعرفني في الحديدة وينتقل خبر وجودي إلى القرية.

نشوان: جيد، ليكن في زبيد، في سمسرة السيدة حليمة، المكان جيد هناك، ونحن نعرفها جيدًا.

سعيد: اتفقنا، لننطلق سويًا الآن وسأمكث بعد ذلك في سمسرة السيدة حليمة حتى تأتي بحمدي.

نشوان: جيد، سألتقي بحمدي وآتي به إلى السمسرة مباشرة ودون تأخير.

سعيد: على بركة الله.

نشوان: لننطلق في الحال.

كان لابد لنشوان وسعيد من التحرك سريعًا دون تأجيل أو تأخير، فالأمر لا يقبل ذلك.

كل شيء يدعوا للقلق، ولا مجال للانتظار.

لا مجال لحسن الظن أو اللامبالاة.

لا مجال للتأخير، فهم لا يعرفون شيئًا عن ماذا يخطط على البلاد وبالتالي قد تأتي ساعة الصفر في أي لحظة وتكون مباغتة عليهم.

في صبيحة اليوم التالي لزيارة ريتشارد ومن معه إلى قرية المصافدة خرج كبار المصافدة ببندقياتهم ورجالهم إلى سد الوادي وأرادوا كسر حصار السد.

استقبلهم المخاولة ليصدوهم عن ذلك.

الشيخ راجح: ماذا تريدون بعد أن قتلتم ابننا سعيد ثأرًا لابنكم سفيان؟

دم سعيد سنحاسبكم عليه، سفيان قُتل خطأً وسعيد قتلتموه انتقامًا.

أغلقتم السد علينا، وستتسببون بموت الكثير من المصافدة من أجل موت أحد أبنائكم دون قصد.

الشيخ حسان المخولي: لم نقتل سعيد ولا غيره، ولو وجدناه لقتلناه دون خوف.

الشيح راجح: بل قتلتموه.

الشيخ حسان: الرجال لا تكذب.

الشيخ راجح: والماء؟

لماذا تغلقون السد؟

الشيخ حسان: ترفضون تسليم ابنكم إلينا لنطبق الشرع في حقه.

الشيخ راجح: لا نعرف أين هو ولو وجدناه لحاسبناه دون أن نسلمه لكم.

الشيخ حسان: بل تعرفون أين هو.

الشيخ راجح: الرجال لا تكذب، كل ما نعرفه أنكم قتلتموه.

اشتد الخصام بين القبيلتين عند الوادي وتواعدتا على الحرب.

لم يكن هنالك مجال للتفاهم بين القبيلتين.

عندما يحضر الغضب تغيب الحكمة.

صحيح أن هنالك خلافًا بين القريتين لكن الأجانب نجحوا بدرجة أكبر في زيادة الخلاف بينهما.

تحرك سعيد ونشوان من عدن ووصلا إلى زبيد حيث مكث سعيد في سمسرة السيدة حليمة وأكمل نشوان طريقه إلى الحديدة.

سمسرة في طرف مدينة زبيد، تديرها السيدة حليمة وابنها عبدالله.

حليمة سيدة فاضلة، توفي زوجها بمرض قبل أكثر من عشر سنوات، وترك لها بعض المال، فقامت بعمل هذه السمسرة، لتقتات منها، وتربي ابنها.

حليمة تحب بلدها، وتعطف على من حولها، وتساعد المحتاجين، لذا يحبها الجميع هنا لنبل أخلاقها، فهي ابنة بلد كما يقولون، ولذلك فضل نشوان أن يكون التجمع في سمسرتها.

سمسرة السيدة حليمة جميلة، ورائعة، وهادئة.

تقدم فيها السيدة حليمة مع ابنها عبدالله خدماتها للمسافرين الذين يمرون بزبيد أو يقصدونها.

بها غرف لينام فيها الزوار.

بها كذلك صالون لاجتماع الناس، ولجلوسهم، والذي به الكثير من الطاولات، والكراسي، لتناول الطعام، ولشرب المشروبات الساخنة والباردة.

تقدم السيدة حليمة الكثير من الأطعمة اللذيذة، فهي تقدم المأكولات التهامية، والصنعانية، والحضرمية، والعدنية، والكثير من المأكولات التي تشتهر بها كافة المناطق اليمنية.

إنها سمسرة يجد فيها كل نازل حاجته من طعام، وشراب، وهدوء.

وصل نشوان إلى الحديدة وطلب من حمدي التوجه معه إلى زبيد للقاء سعيد.

زبيد..

مدينة التاريخ، والعلم، والعلماء.

كانت عاصمة اليمن من القرن الثالث عشر الميلادي وحتى القرن الخامس عشر.

كبيرة في تاريخها، عظيمة في مبانيها، حضارة سبأ وحِميَر تختصرها هذه المدينة العتيقة.

يشعرك أهلها وكأنهم علماء زمانهم، فلا يكاد يخلو دكان من دكاكينها إلا وبه كتاب في التفسير، أو الفقه، أو الحديث.

البساطة هي عنوان أهلها فتجدها في لباسهم أو ابتساماتهم.

في سمسرة السيدة حليمة كان موعد لقاء الشباب.

التقى نشوان، وحمدي، وسعيد في السمسرة وأخذوا يتناقشون في أمر الأجانب.

حمدي: قد يكون الأمر حقًا مثيرًا للريبة، لكن لا أعتقد بأن سالي قد تكون جزءًا من اللعبة لو آمنا بوجود مخطط ما.

سعيد: ولم تستثني سالي؟

حمدي: سالي عاشت في بيتنا ونعرفها جيدًا، إنها طيبة وتساعد المحتاجين وقدمت خدمات كثيرة لأهل الحديدة.

نشوان: العمل الخيري هو وسيلة من الوسائل التي يستخدمها العدو لتحقيق أهدافه.

حمدي: لكن سالي لا.

سعيد: عمومًا لنكن على حذر من أي طرف، سنجعل السمسرة مكانًا لتجمعنا القادم، لن نجعل كل حدث يمر على أنه أمر طبيعي، لنلتقي الشهر القادم هنا لنتحدث عن المستجدات بعد أن نستمر في متابعة الأجانب.

نشوان: اتفقنا.

قبل خروج الأصدقاء من السمسرة صادفوا الشيخ كمال إمام الجامع الكبير في زبيد وهو شيخ فاضل، وعالم من علماء زبيد، وأحد قضاتها، وهو رجل حكيم، معروف برجاحة عقله، وبعد نظره، ولذا رأى الشباب أن يخبروه باجتماعهم ليشاركهم برأيه.

الشيخ كمال: أشكر لكم غيرتكم على أرضكم، فعلًا ما ذكرتموه لا ينبغي أن يمر مرور الكرام، لنلتقي حسب اتفاقكم الشهر القادم، وليحضر معكم كل من له دور في خدمة اجتماعنا.

سعيد: اتفقنا.

نشوان: على بركة الله.

انتهى الاجتماع، وعاد الأصدقاء كل إلى مدينته.

هل كان حمدي يؤمن في داخله بأن سالي ليس لها علاقة بشيء، أم أنه كان يريد أن يبعدها عن نقاشات أصدقائه؟

هل هي ثقة، أم أنه لا يريد لصورتها أن تهتز في داخله؟

أو هو أراد أن يحميها حتى من ظنون من حوله، حتى لو كانت في مستوى الشبهات؟

كلها تساؤلات، لكنها تتفق على أنه يحبها ويريد أن يبعدها عن كل الشبهات، ويحميها مهما كانت الأحوال.

ذهبت مريم المصفدي إلى قرية المصافدة لزيارة أهلها، ومكثت عندهم عدة أيام.

بعد عدة أيام، وعند حضور زوجها عبدالرحمن المخولي لأخذها والعودة بها إلى بيتهم في قرية المخاولة، رفض والدها الشيخ راجح من عودة ابنته مع زوجها.

لن تعود معك ابنتي يا مخولي.

عبدالرحمن: ولم يا عم؟

الشيخ راجح: لم يعد هنالك شيء بيننا، قتلتم ابننا بابنكم.

عبدالرحمن: ولكن.

الشيخ راجح: خذ ابناءك فلن نسمنهم لكم وأنتم تقتلون أبناءنا.

عبدالرحمن: ولكن يا عم.

الشيخ راجح: ليس هنالك نقاش بيننا، وأتمنى أن تقوم بتطليق مريم في أقرب وقت.

خرج الأبناء من عند أمهم.

أمسك بهم الشيخ راجح ودفعهم نحو عبدالرحمن.

بكت الطفلة الصغيرة: أريد أمي.

خذ أبناءك، ولا أريد أن أراك ولا أراهم ثانيةً هنا.

قالها الشيخ راجح لعبدالرحمن.

خرجت الأم من الغرفة، وأخذت تبكي تريد أطفالها.

لم يكن الأمر سهلًا على مريم فراق الأبناء.

كيف تحرم تلك الأم من أبنائها بسبب مشكلة بين قبيلتين؟

لم يفدها اعتراضها.

لم يفدها البكاء، ولا الدموع.

بل حتى بكاء الأطفال وهم يرون أمهم تبكي وهم يغادرون دونها لم يكن كافيًا للشفقة على الأم أو على الأبناء.

هل نحن حقًا بأفعالنا نساهم في تمكين الأعداء منا؟

عندما تجد المرأة الظلم من أهلها لتأتي يد العون من منظمات أجنبية لتلعب دور البطل، أليس هذا تمكين لبعض تلك المنظمات الأجنبية؟

ألا نتسبب في تعاطف الجميع مع بعض تلك المنظمات، وهم يرون ظلمنا للمرأة، لتأتي وتنصرها أمام ظلمنا لها، ثم بعد ذلك تستغل دورها

البطولي الذي قامت به هنا لتمرير مشاريعها التغريبية، أو مهامها الاستخباراتية؟

لماذا المرأة في مجتمعاتنا ليس له قرار في تحديد مصيرها؟

لماذا نجعلها تدفع ثمن خلافات الرجال؟

لماذا لا نبالي حتى بمشاعرها؟

كان مشهدًا مؤلمًا حقًا تقطعت له كل القلوب، إلا قلب من نحتاج إليه.

كانت سالي تفكر في الأموال التي بحوزتها والتي أعطاها إياها ريتشارد من أجل تنفيذ برامجها في الحديدة.

كانت تعرف أن تنفيذ تلك البرامج يعني تدمير المرأة والأبناء، وتعرف جيدًا أن الهدف من كل ذلك هو تدمير المجتمع بكامله ليسهل الاحتلال.

أحبت سالي الناس هنا.

أحبت منال، وحسناء، وبيت العم صابر.

أحبت حمدي.

أخذت تفكر وتسأل نفسها:

كيف لي أن أدمر من أحببتهم؟

كيف لي أن أساعد على احتلال أرض وجدت كل أهل تلك الأرض مسالمون؟

كرماء معي، دون أن يسألوني سؤالًا واحدًا.

ماذا استفدت من عملي في المخابرات سوى احتلال الأوطان.

سوى تدمير الشعوب.

كم أتمنى أن استقر وأصنع لي أسرة تمامًا كما هو حال الفتيات هنا.

ماذا قدم لي وطني ولزميلاتي ونحن جنديات في مخابراته؟

كثيرات من زميلاتي أصبحن سلعة سهلة لجنود تلك المخابرات في المعسكرات والتدريب وأماكن العمل رغم أنهن يقدمن خدمة للبلد.

بل كل امرأة في أي مكان لو لم تدافع عن نفسها ولا تقبل بأي هوان هي سلعة كذلك يتم استغلالها، والترويج بها، واستخدامها، دون النظر لقيمتها كامرأة.

هل خُلقنا لنكون كذلك؟

قررت سالي في نفسها ألا تستمر في عملها المخابراتي، لكن ذلك يعني موتها.

ستتهم بالخيانة العظمى.

سيأتون بها إلى حبل المشنقة، بعد أن تحاكم محاكمة عسكرية.

هل نصرة الضعيف وإحباط مخططات تدمير تعتبر خيانة عظمى؟

هل العمل لاحتلال الأوطان شرف؟

أين تذهب؟

لمن تتحدث؟

تستشير من؟

ليس لها أحد هنا رغم أن بيت العم صابر هم أهلها وأسرتها، لكنها لا تستطيع الحديث عن ذلك لأحد.

أصبحت في حيرة لأيام، ولاحظت منال ذلك.

منال: ما بكِ يا سالي؟

سالي: لا شيء.

منال: بل هنالك ما يشغل تفكيركِ.

سالي: فقط تذكرت أهلي في أوروبا واشتقت إليهم.

منال: نحن معكِ، وسنساعدكِ لتقومي بزيارتهم.

سالي: أشكركِ يا منال، أنتم فعلًا أهلي الذين أعتز بهم.

لم تكن ترغب سالي في إخبار منال عن شيء من ذلك فهي تخشى أن يساء فهمها.

من ناحية أخرى، أخذ حمدي يفكر ويسأل نفسه:

هل من المعقول أن تكون سالي تلك الفتاة الطيبة جزءًا من مخطط؟

هل هنالك أجندة من وراء عملها التطوعي؟

لماذا هي هنا إذًا؟

لا، لا أعتقد.

لكن..

أخذ يفكر ويفكر لكنه لم يصل إلى شيء، فقلبه غطى على عقله، فالحب حين حضوره يقوم القلب بإدارة كل شيء نيابة عن العقل.

كان ريتشارد يلاحظ الأعمال التي تقدمها هدى وصديقاتها لأهل المخا.

كان يرى تلك الأعمال حجرة عثر في طريق تنفيذ بعض مخططاته.

أراد ريتشارد أن يخترق منظمة هدى وصديقاتها لكن محاولاته باءت بالفشل، فالشيخ عبدالودود كان يقف له بالمرصاد أمام كل دعم يريد أن يقدمه.

حاول أن يزرع بينهن بعض فتيات المخا، لكنه لم يجد طريقة إلى ذلك، فهدى محبوبة من الجميع، وأعمالها مصدر سعادة لأهل المخا.

تحدث ريتشارد مع مزراحي حول ذلك.

أشار عليه مزراحي ببث شائعات عند حاكم المخا بأن هدى وصديقاتها في منظمتهن يحرضن على حاكم المخا، ويُعلمن أهل المخا في المركز كيف يطالبون بحقوقهم أمام الحاكم.

كانت فكرة جميلة نالت استحسان ريتشارد، وهذا ما حدث.

أخذ ريتشارد يرسل بعض عملائه لمجلس الحاكم من أجل بث الشائعات حول ما تقوم به هدى وصديقاتها في منظمتهن.

أحس الحاكم بأن تلك الفتيات قد يجعلن سكان المخا يثورون عليه في يوم ما.

طلب حاكم المخا التاجر عبدالودود وأخبره بما تفعل ابنته هدى وصديقاتها.

طمأنه الشيخ عبدالودود بأن كل ما وصله من كلام هو هراء لا ينبغي تصديقه، لكن الحاج مسعود أخبره بأنه قد يقوم بإغلاق وإنهاء عمل منظمة الفتيات.

الحاج مسعود: قد أقوم بإغلاق المنظمة ووقف أعمالها.

الشيخ عبدالودود: ما هذا الكلام يا حاج مسعود؟ إن الفتيات يقمن بأعمال جليلة لسكان المخا.

الحاج مسعود: والتحريض على الحاكم؟

الشيخ عبدالودود: ذلك ليس صحيحًا، إنني أتابع أعمالهن باستمرار وأقدم لهن كل دعم، إن الكثير من الأسر هنا استفادت من البرامج التي تقدم، لماذا لا تحضر زوجتك السيدة سكينة أو ابنتك قمر ليرين كل ذلك ويشاركن الفتيات.

الحاج مسعود: حسنًا يا عبدالودود، لكن ثق أنني لن أتأخر في إغلاق المنظمة لو رأيت شيئًا يثير الريبة.

الشيخ عبدالودود: بل أتمنى أن تراقب عسكرك، وتَسَلطهم على الناس، فهذا الأمر هو ما يثير الريبة ضدك بدلًا من أن تترصد للناس، وتصدق الشائعات.

هكذا هم الحكام، يحسبون كل صيحة عليهم، يخافون من أي عمل سلمي من الشعوب، ولا يفكرون لم الشعوب قد يفعلون ذلك؟ وأن تلك الشعوب لا تريد إلا الخير لبلادها.

لا ينظر هؤلاء الحكام إلى ظلمهم، ولا ينظرون للجبايات الكبيرة التي يأخذونها بدون وجه حق، لا ينظرون لإهمالهم بحق شعوبهم، هم يعرفون جيدًا معاناة الناس من كل شيء ويعرفون بأنهم قد ضاقوا ذرعًا من كثير أمور، وقد تكون لهم ردة فعل في يوم ما، ولذلك تأثر الحاج مسعود بسرعة من تلك الشائعات التي تأتيه بخصوص سكان المخا ومنظمة هدى وصديقاتها، وليته كانت له نفس الاستجابة لتلك الأخبار التي تأتيه بخصوص معاناة الناس.

حان موعد حصاد البُن وقام التاجر صفوان بشراء كامل المحاصيل من جميع المزارعين مبكرًا وبأسعار عالية، على أن يتم تخزينها في مستودعات سرية قرب المخا دون بيعها إلى الموسم المقبل، أو حين يقترح عليه مزراحي ذلك.

كانت مصيبة وحلت على تجار المخا، لم يجدوا ما يشترونه من المزارعين.

لأول مرة يتأثر سوق البُن في المخا، رغم كثرة المزارع، ووفرة الإنتاج، ووجود التجار.

استشاط شهبندر التجار غضبًا وتوجه هو وبعض التجار إلى الحاج مسعود والذي لم يقوم بعمل أي شيء لهم.

الحاج مسعود: لا يوجد أمامي ما هو مخالف للقانون، المزارعون من حقهم أن يبيعوا لمن يريدون، ومن حق التاجر أن يشارك من يشاء وأن يصرف بضاعته كما يشاء، للأسف لا أستطيع عمل شيء لكم.

شهبندر التجار: لكن ذلك سيدمر السوق، لعل الأجانب الذين معه يقدمون له كل دعم من أجل أن يسيطر على تجارة البُن، وأنا بصفتي شهبندر التجار من حقي أن أحافظ على السوق.

الحاج مسعود: كان ينبغي لك أن تدرس السوق جيدًا وتشتري بسعر منافس، لا نستطيع منع أحد من الشراء، ما يمكنك فعله الآن هو النقاش مع صفوان فقط، لا أستطيع فعل أي شيء آخر.

شهبندر التجار: ولكن أنا أستطيع.

الحاج مسعود: لا تتهور يا عبدالودود، أعرفك رجل حكيم.

شهبندر التجار: لا تقلق.

حاكم المخا يخاف على منصبه وعلى كرسيه ولذلك لم يبدي أي تعاون.

كان يدير أمور المخا بحذر وبأقل الأضرار، والأضرار هنا المقصود بها ما سيصيب القصر.

كان يخشى من أن يصدر أي فعل يؤدي لإغضاب الأجانب الذين لا يعرف عن حقيقتهم، وأنه لابد وأن يكون حذرًا من أي ردة فعل بحقهم فلربما أي ردة فعل قد تثير الغرب عليه فيما لو كانوا يتبعون جهة ما وهو ليس بحاجة للدخول في أمور هو غير مستعد لها، أمان القصر هو ما يفكر به ثم أمن المدينة من وجهة نظره ولذلك حسن الظن بهم هي نظرته تجاههم طالما لم يخالفوا النظام، وطالما لم يحدث طارئ يغير تلك النظرة فمبدأ السلامة هي شعاره.

كان ضعيفًا إلا أمام شعبه.

لم يكن يعلم بأنه عندما يحقق في كل أمر يصيب المدينة وسكانها سيخدم شعبه بذلك وسيحقق العدل لهم.

سيحميهم، وسيحمي قصره بعدله قبل أي شيء آخر.

كان كل تفكيره في القصر وكيف يحافظ على الكرسي من شعبه، ولم يكن يعلم بأن شعبه هو خط دفاعه الأول لبقائه وليس من لهم مصالح في المخا من أطراف خارجية، فالشعوب باقية، وأصحاب المصالح مهما بقوا فليست المدينة بالنسبة لهم إلا مائدة سيغادرونها عندما يشبعون.

إن ذلك لم يكن تفكيره فقط ولم تكن طريقة إدارته لوحده.

إن ما يفعله حاكم المخا كان أغلب الحكام يفعلونه في مناطق نفوذهم.

خرج الشيخ عبدالودود مع التجار من عند الحاكم وهو فعلًا لا يدري ماذا يفعل فعاد إلى منزله.

لأول مرة تواجهه مشكلة ويعجز أمامها.

أخذ يفكر:

من أين لصفوان كل تلك الأموال ليشتري كل المحاصيل؟

من هو مزراحي؟ وما حقيقة ريتشارد؟

لماذا ذهبوا مع صفوان عند شرائه كل المحاصيل؟

لماذا كل ذلك يحصل في هذا الوقت بالذات؟

إن ذلك دمار للسوق، ودمار السوق يعني مصيبة وحلت على المدينة.

إن ما يحدث الآن لو تطور فإن ذلك يعني سيطرة رجل واحد على كل الاقتصاد هنا.

إنها النهاية التي تُرسم بلا شك للمخا.

إن التجارة هي عصب الحياة، وعصب الحياة لا ينبغي أن يديره شخص واحد، ولا جهة واحدة بعيدة عن القانون لأن معنى ذلك هو التحكم بمصائر الناس، وربما ابتزازهم.

في هذه الأثناء يدخل ابنه رضوان عليه.

رضوان: ما بك يا أبي؟

عبدالودود: أفكر في أمور السوق.

رضوان: في التاجر صفوان وشرائه كل الحصاد من المزارعين؟

عبدالودود: نعم.

رضوان: فعلًا أمر مقلق ويدعوا للتفكير، لكن ماذا ستفعل؟

عبدالودود: لا أعلم، لكن لابد لي من أن أفعل شيئًا من أجل الناس، ومن أجل التجارة في المخا.

رضوان: أنا في خدمتك وسأساعدك.

عبدالودود: بوركت بني، هكذا أريدك دائمًا.

رضوان: أنا طوع أمرك يا أبي، أرجوا أن تأذن لي لأن أذهب مع مروان ابن التاجر صفوان الشهر القادم إلى الحديدة، سنقوم بزيارة صديقنا حمدي.

عبدالودود: بحفظ الرحمن، وبلغ سلامي لحمدي، ولعمك صابر.

رضوان صديق لمروان ابن التاجر صفوان.

للتاجر صفوان ابن اسمه مروان، وكذلك ابنه اسمها عزيزة، وزوجته هي السيدة اعتدال.

مروان شاب ودود مثل شقيقته عزيزة، يختلف عن أبيه كثيرًا، ودائمًا ما يتضايق من تصرفاته، لكنه يحب أباه بدرجة كبيرة، ويدعوا له في كل وقت.

لقد صدق شهبندر التجار حين قال: إن التجارة هي عصب الحياة، وعصب الحياة لا ينبغي أن يديره شخص واحد، ولا جهة واحدة بعيدة

عن القانون، لأن معنى ذلك هو التحكم بمصائر الناس، وربما ابتزازهم.

إن العالم يتجه لأن تتحكم منظمة عالمية خفية باقتصاد الناس حتى تستطيع أن تدير هذا العالم وتتحكم فيه.

إن مزراحي ليس إلا جزءًا من مخطط يهدف إلى السيطرة على البشر من خلال السيطرة على مصادر عيشهم، وأمثال ريتشارد هم من يقدمون الحماية لهم لتحقيق ما يريدون.

إنهم سينجحون في تنفيذ ما يريدون طالما أننا لم نفهم اللعبة جيدًا، أو تغافلنا عن فهم ذلك.

طالما أنهم أشغلونا بأنفسنا، وبصراعاتنا الداخلية.

طالما ابتعدنا عن ديننا، وعن قيمنا.

طالما قبلنا الذل، ورضينا بالهوان.

لنفهم ذلك جيدًا.

بعد أن انتهى صفوان ومزراحي من تخزين محصول البُن قاما باستيراد بُن من خارج اليمن وتصديره مرة أخرى ليتم الوفاء للمشترين من الخارج.

لم يفكر صفوان بأن ذلك سيضر بسمعة البُن اليمني الذي ذاعت شهرته عالميًا ليصبح البُن رقم واحد في العالم، لكنه الطمع والحقد على تجار المخا وعلى شهبندر التجار.

أحيانًا يضر الإنسان منا بمصالح مجتمعه من أجل إطفاء نار الحقد التي بداخله، أو لتحقيق أهداف شخصية.

لماذا نجد في مجتمعاتنا من يستعد لخيانة دينه أو وطنه أو مجتمعه من أجل تحقيق مصالحه شخصية؟

أين ذهبت عقولنا؟

ألا نعلم بأن الضرر الذي سنُلحق به المجتمع الآن من أجل أن نرضي أنفسنا سيدفع ثمنه أبناءنا في المستقبل؟

نعم، الأبناء هم من سيدفع الثمن، لأن من وضعنا يدنا في يده من أجل الخيانة وتحقيق مصالح شخصية سيذهب متى ما انتهت مهمته، ولن

يبالي بما سيحدث، وسندفع وأولادنا الثمن بعد ذلك لأننا من سيبقى هنا.

لن يبالي لأن الأرض ليست أرضه، ولأن الناس هنا ليسوا من أهله أو جيرانه.

لن يبالي لأنه لن يحقق مراد الله في الأرض.

قررت سالي أن تنفق كل الأموال التي حصلت عليها من ريتشارد في دعم الشباب لعمل مشاريع خاصة ومساعدتهم على الزواج، وتكوين أسرة، وكذلك في دعم الأرامل واليتيمات، ببرامج تعفهن عن السؤال، وكذلك قررت الاستمرار بمساعدة الأسر المحتاجة.

كما خصصت مبلغًا لمساعدة بعض الطلاب في ابتعاثهم إلى بعض الدول العربية لإكمال دراستهم.

بالتأكيد هذه البرامج تخالف توجيهات ريتشارد، لكنها فعلت ذلك حتى لا تؤثر على الوضع الاجتماعي للأسر، ولا يؤدي ذلك إلى تغيير المجتمع، ولتساهم في تطوير الكفاءات ليخدموا مجتمعهم.

فعلت ذلك وهي تعلم بأن ريتشارد لن يعرف شيئًا عما فعلته بالأموال.

كانت منال سعيدة بالدعم الكبير الذي تقدمه سالي، وكذلك بنشاطاتها.

رغم ما قدمته سالي لأهل الحديدة إلا أن تفكيرها بأهل المخا وعدن وباقي المناطق جعلها في قلق.

كيف تخلصهم من خطط ريتشارد؟

كيف تحذر أهل تلك المناطق من الغزو القادم؟

ما تخطط له مخابرات بلدها سيكون وبالًا على الناس هنا.

هنالك أجندة، ولابد لها من أن تنفذ تلك الأجندة، فهي وريتشارد وبيتر وكل الفريق أداة تنفيذ.

في أحد الأيام سمعت سالي حديثًا في العيادة بين منال وحمدي، حول الاجتماع الذي حدث في زبيد، بين حمدي، وسعيد، ونشوان، والشيخ كمال، وأنهم سيجتمعون مرة أخرى الشهر القادم.

أرادت سالي أن تقدم لهم العون وتضعهم في الصورة دون أن يشعر بذلك أحد.

علمت بتفاصيل المكان والزمان من خلال حديث حمدي ومنال.

فكرت، وأخيرًا وجدت الحل.

في صباح اليوم التالي اختفت سالي.

خرجت منذ منتصف الليل دون أن يشعر بها أحد وتوجهت إلى زبيد.

إلى سمسرة حليمة.

أعطتها ورقة، وقالت لها بأن تسلمها إلى الدكتور حمدي صابر حال حضوره، ثم غادرت المكان بسرعة.

عادت في اليوم التالي إلى بيت العم صابر ووجدتهم في قلق شديد عليها.

سألتها منال عن غيابها فأجابت بأنها خرجت إلى بعض القرى لتتفقد أحوالهم، ولم ترغب بأن يذهب معها أحد حتى لا تشغلهم عن أعمالهم.

اعتذرت سالي عن القلق الذي سببته لهم وأنها ستخبرهم قبل خروجها لأي مكان مرة أخرى.

عندما عاد نشوان إلى قريته وجد بأن الأمور قد تأزمت بين أهل قريته وقرية المخاولة.

علم كذلك بأن شقيقته مريم في المنزل بعد أن أخذ والده أطفالها منها وسلمهم إلى والدهم ومنعها من العودة مع زوجها إلى قرية المخاولة.

بالتأكيد أن ما حدث قد أزعجه كثيرًا، وأنه لابد من أن يخبرهم بأن سعيد مازال على قيد الحياة، حتى تهدأ الأمور قليلًا، لكنه لا يستطيع أن يخبرهم عن مكان سعيد على الأقل خلال هذه الفترة.

ما شغل تفكيره هو أن أهل قريته شاع بينهم مقتل سعيد عن طريق ريتشارد، وسعيد في حقيقته لم يقتل.

ماذا يريد ريتشارد ومن معه من إشاعة مقتل سعيد؟

لماذا التاجر صفوان يشتري كل المحاصيل من قريتنا والقرى المجاورة، ومن أين له كل هذه الأموال؟

هل الأجانب يقدمون له الدعم؟

قرر نشوان عدم إخبار أحد بمكان سعيد حتى يجتمع مع أصدقائه للنظر في الأمر.

نشوان يعرف عبدالرحمن المخولي زوج أخته جيدًا، فهو صديق له، ولذلك أراد أن يذهب إليه بدايةً ويتفاهم معه حتى لا يقوم بفعل ما يؤدي إلى هدم بيته.

أحيانًا قد تمر بعض الأحداث التي تؤثر على سير خطواتنا.

تجعلنا نعيد حساباتنا فقط لأن هنالك طارئ لم نعمل له حسابًا.

لابد من الحكمة هنا حتى لا نتهور ببعض أفعال قد تؤثر على هدفنا الرئيس الذي نريد تحقيقه، ولذلك فكر نشوان جيدًا ولم يتهور، فالقضية التي أمامهم تحتم عليهم التفكير قبل أي تصرف.

دخل شهر رمضان المبارك، وسعد الجميع به.

تغير شكل المدينة، وتبدلت أحوال الناس.

زين الناس بيوتهم استعدادًا للشهر المبارك، وانتشرت السفرة الرمضانية في مساجد الحديدة، ودعمتها الأسر بما تستطيع من أطباق شهية، ومياه، وعصائر طازجة.

أصوات تلاوة القرآن تسمعها من كل بيت.

سكينة وطمأنينة تشاهدها حتى في ممرات المدينة.

قبل أذان المغرب تأتي الفتيات بأطباق من بيتها لتوزعها على الجيران، لا تكاد ترى سفرة داخل أي منزل إلا وبها أطباق جاء بها الجيران.

قبل صلاة العشاء يخرج الرجال والفتيان إلى المساجد لصلاة التراويح، وتقوم النسوة والفتيات بتبخير المنازل وأداء الصلاة في البيوت.

إنها عادات لا يتخلى عنها اليمنيون ولا المسلمين في كل مكان.

لاحظت سالي التغير الذي حدث في بيت العم صابر، بل وفي كل الحديدة.

هل تمتنعون عن الأكل يا منال طوال النهار؟

قالتها سالي لمنال وهي ترتب فراشها قبل الخروج إلى العيادة.

منال: نعم يا سالي، إن الله أمرنا بالصيام وله حكمة في ذلك، إن صيام شهر رمضان هو أحد أركان الإسلام الخمسة.

سالي: لأول مرة أكون في بلد مسلم خلال شهر رمضان، عندما كنت عند جدتي لم يكن شهر رمضان قد جاء، لقد مكثت عندها شهر واحد فقط، وبقية حياتي كلها عشتها في أوروبا.

منال: رائع أن تكوني معنا في هذا الشهر، إنها فرصة جيدة لتتعرفي على هذه العبادة العظيمة.

سالي: أنتم تفعلون أشياءً جميلة، ودينكم يعلمكم كل الأخلاق والمبادئ الحسنة، عندما زرت جدتي وجدتها تساعد الكثير من الضعفاء وتقول بأن دينها يأمرها بذلك، وأن ذلك يقضي على الفقر بين الناس.

منال: طالما أعجبكِ ديننا لم لا تنتسبين إليه؟

ابتسمت سالي وأرادت فعلًا الدخول إلى الإسلام في هذه الأيام المباركة.

لقد رأت الإسلام بحق دون تشويش، وبعيدًا عن تلك الأكاذيب التي يقولونها عن الإسلام والمسلمين في بلادها.

لقد شاهدته في منزل العم صابر.

في الناس الذين رأتهم هنا.

ذهبت سالي إلى العيادة، ومر اليوم.

عادت سالي ومنال إلى المنزل بعد الانتهاء من العمل.

بعد أن ذهب الجميع لأداء صلاة التراويح طلبت سالي من منال وحسناء الحضور إلى الغرفة.

دخلت منال وحسناء وأغلقت سالي الباب وأخبرتهم برغبتها في الدخول إلى الإسلام.

كم كانت سعادة منال وحسناء كبيرة برغبة سالي.

نطقت سالي الشهادتين، ودخلت الإسلام.

بكت منال وبكت حسناء وحضنوا سالي التي بكت أيضًا فرحة بإسلامها.

عرف العم صابر وحمدي بإسلام سالي وفرحوا كثيرًا لذلك، وقام العم صابر بإهداء مصحفًا لسالي، وسجادة للصلاة.

أخبرت سالي عائلة العم صابر بعدم رغبتها في أن يعرف أحد غيرهم عن إسلامها.

كانت تخشى من أن يعلم ريتشارد بذلك.

زاد حب عائلة العم صابر لسالي، وتمنى حمدي لو أنه يخطبها في أقرب فرصة.

انتهى شهر رمضان، وجاء العيد الذي أصبح هذه المرة له نكهة مميزة مع سالي وعائلة العم صابر.

العيد في اليمن له طعم رائع وجميل في كل منطقة من مناطق اليمن السعيد.

لبست سالي، ومنال، وحسناء ملابسهم التهامية المميزة، وخرجوا لصلاة العيد مع العم صابر وحمدي.

بعد العودة من الصلاة أعدت الفتيات وجبة الإفطار للعم صابر وحمدي ورجال الحديدة الذين حضروا لديوان العم صابر للاحتفال بالعيد كعادتهم السنوية.

حضر سليم المصري تاجر الأسماك المعروف، والرجل المقرب من العم صابر، وكذلك الحاج هشام، والسيد سلمان، والفقيه عبدالباسط، والقاضي عبده وغيرهم من أبناء الحديدة.

حضرت كذلك نساء الحديدة لمنزل العم صابر وجلسن في مجلس النساء، فحضرت صفية زوجة التاجر سليم، وابنتها نجاة، والحاجة فاطمة زوجة الفقيه عبدالباسط، وزوجة القاضي عبده، وبقية نساء الحديدة.

تكرر المشهد في المخا في بيت التاجر عبدالودود، وفي تعز، وفي إب، وصنعاء، وعدن، والمهرة، وسقطرى، وكل منطقة من مناطق اليمن، وصنعوا الكعك، والمعمول، وغيرها، وكلها حلويات يقدمها اليمنيون لضيوفهم في العيد.

حتى السيدة حليمة في سمسرتها قدمت كل تلك الحلويات لزوارها.

حضر كذلك الأطفال، ولبسوا الجديد، وحصلوا على عيدياتهم من أهاليهم وضيوفهم.

كان الكل يقدم للصغار ولو القليل مهما كانت حالته المادية، وكان الناس يعطون أبناء الفقراء أكثر من غيرهم ليوسعوا على أهاليهم في هذه المناسبة السعيدة.

الكل كان سعيدًا رغم آلامه.

الكل كان فرحًا، وكانت سالي تشاهد كل تلك الاحتفالات التي جعلها الله لعباده كمحطة تغير من نفوسهم وهم يسيرون في هذه الحياة برغم كل ما فيها من تفاصيل وآلام.

مر شهر رمضان والعيد وحان موعد اجتماع الأصدقاء في زبيد.

توجه سعيد إلى زبيد، وتبعه نشوان.

كان نشوان يشعر بالإرهاق فلم ينم جيدًا بسبب تفكيره في أمر أخته مريم، وكذلك بأمور قريته.

خرج قبل الفجر من القرية باتجاه مكان اجتماعه بأصدقائه في زبيد.

أذن الفجر في طريقه فصلى في إحدى قرى جبل راس، وتناول إفطاره هناك عند صديق له.

ما أجمل القرى اليمنية، وما أروع شروق الشمس فيها.

تصيح الديكة مع الفجر ليخرج الناس إلى الصلاة ثم يعودون لتناول إفطارهم أو تلحق به النساء إلى المزارع بعد ذلك.

الإفطار في القرى يتم إعداده في البيت من ثمار وحبوب المزارع المحيطة بها، ومن بيض الدجاج، وحليب البقر.

عسل طبيعي من المنحل، ولبن، وجبن طازج من البقرة، وخبز من الحبوب، ومأكولات شعبية يتم إعدادها من الحليب أو خضروات المزارع، ذلك هو إفطار القرية اليمنية في مختلف المناطق.

مع الصباح يخرج الجميع إلى الحقول للزراعة أو الحصاد، وتذهب الفتيات لجلب الماء.

ما أجمل صباح القرى وما أروع شمسها التي تأتي على استحياء فلا تحرقهم بلهيبها بل تشع بنورها لتضيء تلك القرى لا أكثر.

ترعى الماشية بجوار تلك المزارع، وتأكل من عشبها النظيف، ولذلك ما تنتجه تلك الماشية لا يوازيه إنتاج في مكان آخر مهما بلغت إمكاناته.

الأطفال لابد لهم من الذهاب إلى فقيه القرية، وكذلك الفتيات لابد لهن من التعلم.

غدًا هو موعد السوق الأسبوعي لأهل المنطقة، فيستعد الجميع بتجهيز ما أعدته مزارعهم ومناحلهم، وما صنعته بيوتهم من ألبان البقر، وما تم صناعته من مشغولات يدوية من نساء القرية، للذهاب به إلى السوق.

الحياة رائعة في القرية وتكمن روعتها في بساطتها.

أكمل نشوان طريقه باتجاه زبيد للقاء أصدقائه حمدي وسعيد في سمسرة حليمة ومعهم الشيخ كمال.

اكتمل وصول الأصدقاء وبدأ الحديث عن المستجدات.

حكى لهم نشوان ما حدث في قريتي المصافدة والمخاولة وإثارة الأجانب لخبر مقتل سعيد، وكيف أن هؤلاء الأجانب كانوا مع التاجر صفوان عندما اشترى كل المحاصيل من مزارعي القرى بمبلغ كبير كسابقة تحدث لأول مرة من أن يشتري تاجرًا لوحده كل المحاصيل دون غيره.

كان الأمر مثيرًا للشك فعلًا بين الأصدقاء.

لماذا؟ ومن هؤلاء؟ وهل لهم علاقة بالأجانب الذين في عدن؟

هنا تدخل عليهم حليمة في مجلسهم وتعطي حمدي رسالة.

حليمة: تفضل يا دكتور حمدي، هذه الرسالة لك، جاءت بها فتاة وذهبت.

حمدي: رسالة لي أنا؟ أشكركِ يا حليمة.

أخذ حمدي الرسالة وفتحها.

تفاجأ بما فيها ثم أعطاها لنشوان وقال له: اقرأ.

نشوان: (دكتور حمدي.. الوضع خطير، هنالك أجانب يتواجدون في بعض المناطق في اليمن، يقودهم ضابط تابع للمخابرات يدعى ريتشارد لتنفيذ أجندة خارجية، والتخطيط للغزو، واحتلال بلادكم).

سعيد: أكمل يا نشوان.

نشوان: فقط هذه الكلمات.

عم الصمت المجلس.

توقفوا عن الحديث.

هنا يتحدث الشيخ كمال: هل هم مصرون على غزو اليمن واحتلالها؟

كانت هنالك حملات سابقة من البرتغاليين، والهولنديين، والطليان، والانجليز، وغيرهم لاحتلال اليمن وكلها باءت بالفشل.

نشوان: نعم، لكنها لم تكن بهذا التخطيط، وجودهم الآن بهذا الشكل يعني دراسة المنطقة جيدًا من قبلهم وأنهم استفادوا من تجاربهم السابقة.

سعيد: ما العمل؟

الشيخ كمال: تعرفون جيدًا الأوضاع السياسية التي نعيشها، نحن الآن نعاني من ضعف سياسي بسبب ضعف الحكام بعد الخروج العثماني من اليمن وتسلط الحكام على الناس بالجبايات، وحماية قصورهم، دون التفكير في تطوير البلد أو حمايتها من أي عدوان خارجي أو حتى الاهتمام بمصالح الناس.

بلدنا يملك موقعًا مهمًا، فنحن مدخل البحر الأحمر الذي يصل الشرق بالغرب، وهو بحر مهم لمن يسيطر عليه، وشريان تجارة العالم وكذلك عدن هي بوابة الجزيرة العربية من المحيط الهندي، لذلك ومع الضعف السياسي نحن مطمع للكثير من دول الاستعمار.

حمدي: هل نسكت وننتظر غزوهم لنا؟

سعيد: بالتأكيد لا.

نشوان: لماذا لا نطلب العون من الدولة العثمانية أو من الخارج؟

الشيخ كمال: الدولة العثمانية تعاني في هذه الفترة كثيرًا وسمعنا ما حدث في مصر والكثير من المناطق، أما غيرها فلن يُقدم لنا شيئًا بالمجان، من سيخدمنا ستكون له أطماع بالتأكيد وسيقوم بابتزازنا مستقبلًا.

حمدي: والحل؟

الشيخ كمال: بلدنا أغلى ما نملك ولن نتركها لأحد مهما كان، لن تنتصر أي بلد إلا بقوة من الداخل، من أبنائها، هم فقط من يحميها بصدق ويدافع عنها.

سعيد: كيف؟

الشيخ كمال: سنتعاون جميعًا من أجل حمايتها، لو جلسنا هكذا سيغزونا الأعداء، لابد من أن نُكَون فريق عمل.

حمدي: تقصد أن نقوم بتجييش الناس؟

الشيخ كمال: حاليًا لا، لابد لنا الآن من أن نفكر أولًا ماذا يريد الأجانب، وكيف يفكرون، إن مرحلة ما قبل الاحتلال يحرصون فيها على تنفيذ أجندة مثل إشغال الناس بالملهيات، وتخديرهم، تدمير المجتمع من الداخل عن طريق تدمير المرأة والأبناء، محاربة التعليم لينشأ جيل هش، تفقير الناس والسيطرة الاقتصادية عليهم، كل هذه الأمور ستساعدهم بلا شك لو تحققت في الدخول إلى البلد واحتلالها، ولذلك لابد بدايةً من إحباط كل تلك الأمور إن وجدت.

نشوان: كيف؟

الشيخ كمال: كل منكم في منطقته يتابع هؤلاء الأجانب، ويبحث عن الأجندة التي يعملون عليها، ويحاول إحباطها.

كذلك لابد لأي منكم من الاستعانة بمن يثق بهم لمساعدتنا.

وكذلك لابد من تكثيف التواصل مع المناطق الأخرى جميعها، من المحيط جنوبًا وحتى أقصى الشمال، ومن المهرة وسقطرى شرقًا وحتى البحر الأحمر غربًا، لعلنا نجد ما يعيننا أو يكشف لنا بعض الخيوط.

لابد من التحرك في كل المناطق وموعدنا بعد شهر من الآن في هذا المكان.

حمدي: اتفقنا.

سعيد: على بركة الله.

تفرق الجمع بعد أن أوصوا حليمة بمتابعة السياح هنا والذين قد يأتون بحجة مشاهدة الآثار.

تفرق الجمع وفي داخل كل منهم سؤال:

ما قصة الرسالة؟

من تلك الفتاة التي أرسلتها؟

هل حقًا نحن أمام محاولة غزو جديدة؟

كيف سنتصرف ونحن في ضعف وفُرقة سياسية؟

لماذا لم ينتبه لذلك حكام المناطق والنواحي؟

في اليوم التالي من عودة حمدي من زبيد حضر رضوان ومروان من المخا لزيارته، وقضاء بعض الوقت معه.

عرف حمدي بأخبار المخا، وحكى له رضوان عن ما حدث لأبيه، وعن وجود الأجانب، وكيف أنهم أضروا باقتصادها.

لم يعجب مروان هذا الحديث وأخذ يتناقش معهما:

مدينة المخا يأتيها الكثير من الأجانب قاصديها دون غيرها لأن البُن يخرج منها ليُصدر إلى كل دول العالم.

رضوان: صحيح يا مروان، لكن هؤلاء بالذات هنا منذ فترة ليست بالقليلة، ويتجولون في المخا وبقية المناطق وكأنهم يريدون عمل شيء ما وليس شراء البُن، وتعرف كذلك المشكلات التي حصلت بسببهم.

مروان: قد يتهيأ لك ذلك.

حمدي: أنت قريب من والدك يا مروان وبإمكانك معرفة حقيقة تواجدهم والتأكد من ذلك.

رضوان: كذلك يا مروان قد تكتشف شيئًا فيتسبب ذلك بحمايتك لوالدك من هؤلاء، صحيح أن والدك قد تسبب بالضرر لكل تجار المخا لكنه في النهاية ابن المخا ولن يقبل بأي مخطط يضر بها.

لم يقتنع مروان كثيرًا بكلامهما إلى أن حكى لهما حمدي عن قصة وجود الأجانب في أماكن متفرقة من البلاد، وعن قصة الرسالة، وعن اجتماعه بأصدقائه في زبيد.

تحمس مروان ورضوان إلى العمل مع الفريق والمساعدة بقدر ما يستطيعون.

في أثناء حديث الأصدقاء أخذ مروان الرسالة وتأملها وسأل نفسه:

هل حقًا يمكن لوالدي أن يقدم خدمات لهؤلاء الأجانب دون أن ينتبه لذلك؟

أخذ يفكر ويسأل نفسه إلى أن وضع الرسالة في جيبه دون أن يشعر.

كم هو مؤلم أن نجد من نحب بيد أعدائنا ويقدم لهم المساعدة.

كم هو مؤلم أن نرى كل ذلك دون أن نستطيع تقديم شيء لإنقاذهم.

نكتفي بالصمت، ونحاول أن نُكذب ما نرى، فقط لأننا نحبهم ولا نريد أن نصدق أنهم كذلك.

نحاول أن نُكذب ذلك دون أن نبحث عن دوافع ما حدث أو حقيقته.

نعيش شعورين مختلفين.

وبين هذا وذاك قد نتوه ولم ننقذ من نحب.

قد نتوه ولم نحمي مستقبل أبنائنا.

قد نتوه ولم نحمي بلدنا من الاحتلال.

بعد مضي وقت ليس بالقصير على شراء صفوان لمحاصيل البُن من المزارعين اجتمع ريتشارد مع بيتر ومزراحي دون صفوان، وأخبرهم بخطة استئجار الأراضي الزراعية من المزارعين، وبأن الوقت مناسب جدًا خاصة في قريتي المصافدة والمخاولة وذلك بسبب المشكلات الدائرة بينهما، ولذلك ستكون البداية من هاتين القريتين.

في صباح اليوم التالي توجه ريتشارد ومزراحي فقط دون بيتر إلى قرية المصافدة، وكان الغرض من عدم ذهاب بيتر هو مكوثه عند صفوان، ومراقبته للسوق في المخا.

وصل ريتشارد ومزراحي إلى قرية المصافدة ورحب بهما الشيخ راجح وأهل القرية لأن لهما الفضل في الأرباح التي تم جنيها من المحصول فأصبحا مصدر ثقة عند أهل القرية.

عرض مزراحي على أهل القرية استئجار المزارع منهم لمدة ثلاثين سنة.

أفهمهم مزراحي بأنه يملك الكثير من المزارع في أوروبا، ويملك طرق حديثة للزراعة والحراثة، مما سيزيد من محصول الزراعة هنا في كل عام، وبعد انتهاء الثلاثين سنة سيتسلم المزارعون مزارعهم وهي

تنتج بوفرة أكبر، وسيمتلكون كذلك كل المعدات التي سيتركها لهم مزراحي.

لم يكن هذا العرض يتم تقديمه فقط لمزارعي البُن، بل حتى مزارع المانجا وبقية الفواكه والخضروات.

تردد المزارعون بدايةً في قبول العرض، وأخذوا يفكرون ويتشاورن فيما بينهم.

حاول مزراحي إقناعهم، خاصة وأن العقد سيكون عقد تأجير وليس بيع، صحيح أن مدة التأجير طويلة المدى لكن في النهاية الأرض ستعود لأصحابها وبفائدة أكبر وبالمكائن التي فيها، وكذلك سيتسلمون مقدمًا قيمة الإيجار ليستمتعوا بالأموال خلال هذه الفترة.

وافق الكثير من المزارعين خاصة وأن ما سيستلمونه يتجاوز ما كانوا يحصلون عليه السنوات الماضية من زراعة البُن، وأن هذا المبلغ سيكون دون أن يبذلوا جهدًا في الزراعة، حيث أنه من أراد أن يبقى للعمل في المزرعة سيتم دفع أجرةً له على ذلك ليعمل كمزارع، مع العلم بأن مزراحي سيجلب أيدي عاملة من الخارج تقوم بإدارة المزارع لأنها أعلم بالطرق الحديثة للزراعة واستخدام الآلات قبل الآن في بلدها.

تشجع بعض أصحاب المزارع الآخرين الذين لم يوقعوا العقود، خاصة عندما وجدوا من قام بإيجار مزرعته يستلم الكثير من الأموال، وكذلك بعد أن عايشوا وشاهدوا كيف هي المعاناة مع الماء نتيجة المشكلات التي كانت واقعة مع قرية المخاولة.

بعد أن وقع المزارعون على كل العقود ذهب ريتشارد ومزراحي إلى قرية المخاولة وفعلا نفس الشيء.

لم تكن الأمور في قرية المخاولة أصعب لأنهم علموا جيدًا أن رفضهم يعني المواجهة مع الأجانب الذين سيديرون في القريب العاجل المزارع في قرية المصافدة، ولأنهم أرادوا ألا يستفيد المصافدة وحدهم من المعدات الجديدة دون غيرهم، فوقعوا على العقود دون تفكير.

حضر نشوان بعد عدة أيام من زبيد وشاهد ما حدث.

جن جنونه، فكيف يقوم أهل قريته بإيجار مزارعهم لأجانب لا يعرفون عنهم شيئًا؟

حتى لو كانوا يعرفون عنهم كل شيء، كيف يتخلون عن مصدر رزقهم وأرضهم بهذه الطريقة؟

حاول التحدث مع والده الشيخ راجح لكن والده نهره.

مزرعتي وأنا حر فيها.

هل تريد أن ترثني وأنا مازلت على قيد الحياة؟

أنا شيخ القرية وما أفعله هو الصحيح.

إنه عقد إيجار لا بيع.

ما فعلته كان في مصلحة القرية، تطوير الزراعة هو ما نحلم به.

كانت تلك هي ردود الشيخ راجح والتي لم يستطع نشوان الرد عليها لأنه بالتأكيد لا يملك دليلًا قويًا على ريتشارد ومن معه فالرسالة تظل رسالة لا أكثر، خاصة وأن الأجانب قدموا لهم الكثير.

حاول نشوان التحدث مع إخوته لكنهم لا يستطيعون فعل شيء في وجود والدهم.

كانوا يقولون له:

لعل في الأمر خير، لننتظر ونرى.

بعد حادثة استئجار الأراضي أصبح مزراحي يتصرف وكأنه زعيم كل تلك القرى.

كلمته مسموعة، وفي نفس الوقت أخذ يمارس دور الزعيم الطيب الذي يهتم بالناس ويعالج أوضاعهم ومشكلاتهم، بل وذهب لأبعد من ذلك وهو أنه أصبح يقرض الناس الأموال مباشرة وبكل يسر، مما

جعل الكثير من الناس يحضرون إليه ويطلبون منه أموالًا ويوقعوا على مستندات دون حتى قراءتها.

أخذ مزراحي يكسب ثقة الجميع.

بعد أسابيع رست على ميناء المخا سفينة بها مجموعة من العمال من جنسيات أوروبية ومعهم بعض المعدات، فاستقبلهم مزراحي، وذهب بهم إلى المزارع في بعض القرى ليشرفوا عليها ويديرونها.

كل ذلك كان يحدث وشهبندر التجار يقف صامتًا لا يدري ماذا يفعل.

توجه شهبندر التجار مرة أخرى إلى الحاكم:

ما الذي يحدث يا حاج مسعود، هل يرضيك ذلك؟

الحاج مسعود: وماذا تريديني أن أفعل طالما الناس هنا لم يخالفوا القانون؟

الشيخ عبدالودود: عن أي قانون تتحدث؟

هل ضياع التجارة، والآن المزارع ستضيع في الطريق، هو قانوني في نظرك؟

الحاج مسعود: لعل في الأمر خير، الناس لم يشتكوا، المزارعون سعداء، والمزارع لازالت تحت أملاكهم، إنه إيجار لا أكثر.

الشيخ عبدالودود: الايجار طويل المدى، هل تظن أنهم سيتركون المزارع بعد ثلاثين عامًا؟

الحاج مسعود: يوجد قانون سيخرجهم.

الشيخ عبدالودود: لن يخرجوا طالما استطاعوا وضع أيديهم على المزارع، عمومًا لن أبقى صامتًا، لقد فكرت في مصلحتك فقط يا حاج مسعود، تريد أن تستغل ما حدث لتأخذ نصيبك من صفقة ايجار المزارعين للمزارع، ولتستفيد كذلك من الأجانب من جهة أخرى.

الحاج مسعود: اعقل يا عبدالودود، لا تجعلني اضطر للتصرف معك بشكل آخر.

الشيخ عبدالودود: في أمان الله.

لم يخطئ عبدالودود عندما قال بأن الأجانب لن يخرجوا طالما وضعوا أيديهم على المزارع.

إن مزراحي نجح في الدخول إلى هذه المزارع بعقد طويل المدى، وسيقوم بعمل الكثير من الأمور بلا شك والتي ستجعله يحكم قبضته جيدًا على تلك المزارع، وأول تلك الأمور هي إقراض الناس وهو يعلم جيدًا أنهم سيجدون صعوبة في سداد تلك الديون في المستقبل القريب.

إنها خطة خبيثة من مزراحي لامتلاك الناس عن طريق إقراضهم، وهذا يعني أنه سيتحكم في مستقبلهم.

نعم، سيتحكم في مستقبلهم عندما يعجز هؤلاء عن سداد ديونهم لمزراحي، وعندها سيصبحوا تحت إمرته ورحمته.

سيتحكم بهم، وعندها سيفرض قوانينه على المجتمع الذي سيصبح أفراده حينها يتمنون رضا مزراحي فقط ليعيشوا بهدوء.

رغم كل تلك الأحداث واستئجار المزارع من قبل مزراحي وحصول المزارعين على الكثير من الأموال لم ينسي المخاولة مقتل ابنهم سفيان ولم ينسي المصافدة مقتل ابنهم سعيد.

أعطى فراغ الناس في القريتين من العمل والزراعة، ووجود المال بين أيديهم، مساحة لاستغلال ذلك الفراغ وذلك المال لعمل مناوشات بينهما، وكان ذلك جزء من الخطة التي خطط لها ريتشارد ومزراحي.

كان الشجار مستمر بين القريتين إلى أن أصبح المخولي لا يستطيع دخول قرية المصافدة، والمصفدي لا يستطيع دخول قرية المخاولة، بينما عمال القريتين من المزارعين الأوروبيين يتبادلون الزيارات فيما بينهم وينتقلون بين القريتين.

كل ذلك يحدث وكانت مريم ومثيلاتها هن الضحايا.

دفعت مريم ثمن كل ذلك بحرمانها من رؤية أطفالها.

كانت تبكي وما باليد حيلة.

حاولت التسلل سرًا ذات يوم إلى قرية المخاولة لرؤية أطفالها ولم تتمكن من ذلك.

كررت ذلك مرات عديدة ولم تفلح بشيء لكنها في إحدى المرات لمحت طفلتها مع عمتها عائشة من بعيد.

لمحتها عند سد الوادي.

لم تكن تستطيع الوصول إلى طفلتها فلربما رآها أحد من حرس القرية ووشى بها عند والدها الشيخ راجح.

كانت تنظر لطفلتها من بعيد وتبكي.

ما إن غادرت طفلتها مع عمتها المكان حتى أسرعت نحو ذلك المكان، وقبلت الأرض التي مشت عليها طفلتها.

كانت تمرغ وجهها بذلك التراب الذي مشت عليه طفلتها وتبكي.

إنه الظلم الذي دفعت ثمنه تلك المرأة وذنبها فقط أنها امرأة لا تستطيع أن تعترض على قرار.

استمر سعيد في التقصي عن الأجانب الذين سكنوا عدن.

كان يتابع تنقلاتهم إلى أن ذهبوا إلى المكلا.

تواصل سعيد مع صديقه سالمين، وطلب منه أن يتابع الأجانب في تحركاتهم في المكلا، وحضرموت، والمهرة، وأبين.

كان الأجانب في كل مكان يذهبون إليه يقومون باستكشاف ذلك المكان والكتابة عنه.

كانوا وكأنهم كتاب رواية، يحددون من أين سيدخل البطل وكيف سيتصرف.

حتى سقطرى، تلك الجزيرة التي في قلب المحيط الهندي ذهب إليها أولئك الأجانب وتجولوا فيها.

كيف لا يذهبون إلى تلك الجزيرة وهي تملك من الموقع الاستراتيجي ما يجعلها مكانًا مناسبًا لمراقبة السفن والحركة البحرية في المنطقة.

هي جزيرة ساحرة، لم يُرى لها شبيه في كل الأرض.

بحرها الشفاف الذي يكشف لك ما في أعماقه من كائنات ملونة.

رمالها الذهبية المتناثرة أمام البحر.

أشجارها النادرة هنا وهناك، والتي لا يوجد شبيه لها في أي مكان آخر من هذا العالم.

خضرواتها التي ما إن تأكلها تشعر وكأنها طُبخت وهي مازالت فوق الأشجار.

إنها جنة الله في أرضه وكيف لا تكون كذلك وهي جزء من أرض الجنتين.

كان سعيد يراقب كل ذلك وكان ينتظر الخطوة القادمة.

والخطوة القادمة هو يريد أن يحددها مع أصدقائه وليس الأجانب.

بين كل تلك الأحداث التي تحدث في بعض المناطق أخذ حمدي يفكر:

لماذا الحديدة الأقل ضجيجًا وهي التي كانت سابقًا مطمعًا للكثير من الغزاة؟

أين تقف سالي بين كل تلك الأحداث؟

كان يثق في أن سالي ليست منهم، لكن كل من هم حوله في الاجتماعات كانوا يحذرونه منها.

كانت نظراتهم له وكأنهم يخبروه بأن الحب لا ينبغي أن يعميه عن الواقع.

لا يدري ماذا يفعل؟

ماذا يقول لسالي؟

هو يريد أن يعلم حتى يعرف كيف سيتصرف ويحميها لو كان هنالك شيء.

في أحد الأيام خرجت سالي من غرفتها وتوجهت مباشرة إلى العيادة.

كانت مسرعة لأن هنالك حالات تنتظرها.

نسيت سالي أن تأخذ معها بعض الأوراق التي تحتاجها للعيادة فطلبت من منال أن تذهب وتجلبها لها.

عادت منال إلى البيت ودخلت الغرفة وذهبت لخزانة سالي وفتحت الدرج لتأخذ ما طلبته سالي منها.

وقعت عين منال على ورقة خاصة بالمخابرات.

تجمدت منال في مكانها.

أخذت ترتجف.

لا تدري ماذا تفعل.

هل حقًا سالي جاسوسة؟

هل هي تتبع جهاز مخابرات أجنبية؟

ما الذي يحدث أمامي؟

لا أكاد أصدق!

أغلقت منال الدرج، وأخذت ما طلبته منها سالي، ثم ذهبت إلى العيادة ومضى اليوم.

مضى اليوم على منال وكأنه سنة.

عاشت في قلق وضيق إلى أن حل المساء.

في المساء أدخلت منال سالي الغرفة وأغلقت الباب.

أخبرتها بأنها أصبحت أخت لها وأن حبها يوازي حبها لحسناء.

أخبرتها بأنها جزء من هذه العائلة، وأن حمدي معجب بها، وسيخطبها للزواج لتبقى معهم العمر كله.

أخبرتها بالكثير وهي تنظر إليها وتكلمها بحدة جعلت سالي تستغرب من تلك الحدة وتلك النظرات، ثم أخبرتها بما وجدت في الدرج.

العلاقة التي بيننا يا سالي هي التي جعلتني أتحدث معكِ لأن مثل هذه الأمور لا تقبل حتى مجرد النقاش أو التبرير.

قالت منال لسالي تلك الكلمات وهي تنظر إلى وجهها.

كانت سالي في قمة برودها وكأنها لم ترتكب أي شيء يدعوا للذعر.

هل انتهيتِ يا منال؟

هل تظنين أنني قد أخونكم؟

نعم يا منال أنا اتبع جهات مخابرات أجنبية، بل وضابطة في ذلك الجهاز.

نعم يا منال جئت إلى الحديدة من أجل تنفيذ أجندة.

نعم يا منال كل ما ذكرتيه صحيحًا، لكنني لست مثل ما تظنين.

ذهبت سالي وفتحت درجها، ومنال تنظر باندهاش، وأخرجت مجموعة من المستندات وقالت لها:

اقرئي يا منال.

كل هذه أوامر لابد لي من تنفيذها.

اقرئي هذه، إنها تخص المرأة والدعوة لتحررها، إنها أوامر لكي تتمرد المرأة على الرجل من خلال إقامة بعض البرامج التي تشعر المرأة باستقلاليتها، وتطالب بالمساواة، والاستقلال.

إنني يا منال رأيت المرأة هنا، رأيتكِ أنتِ ورأيت حسناء، رأيت حمدي ورأيت والدكِ.

رأيت النساء في الأسواق، وفي المزارع، ووجدت أن المرأة هنا تعيش في أفضل حال، وأن دعوات تحريرها هي لأجل تدمير المجتمع ليسهل علينا دخوله.

انظري لهذ المستند، إن فيه برامج تتعلق بالطفل، وهذا مستند آخر به برامج تتعلق بالتعليم.

إن دوري هنا ليس كما تريني أفعله كل يوم.

إن المطلوب مني هنا هو أن أعمل ندوات أهيج المرأة على أبيها وزوجها وأهلها.

إن المطلوب مني هنا هو أن أذهب لمكان تعليم الأطفال والفتيان، وكذلك الفتيات، وأعرض خطط لتغيير المناهج، واستبدال كتب الدين والعلوم والحساب بكتب أخرى.

هل رأيتِ أنني فعلت شيئًا من ذلك؟

أقرئي هنا ما كتبته لريتشارد، قلت له في رسالة سابقة أرسلتها له بأن كل الأمور تسير على ما يرام، ووفق الخطة.

هو يظن أنني بدأت ببرامج المرأة والطفل والتعليم، وأنفقت الأموال التي أخذتها منه على ذلك، لكن الذي حدث وكما شاهدتي أننا أنفقناها أنا وأنتِ في برامج تخدم الشباب لأن الشباب هم من يبنون الأسرة وهم المطالبون بالإنفاق، وكذلك قمنا بمساعدة الكثير من المحتاجين، والأيتام، والأرامل، والمطلقات، وقدمنا كذلك للفتاة الكثير من البرامج التي تفيدها وتصقلها وتعلي من شأنها.

هل تذكرين الندوة التي أقمناها أنا وأنتِ قبل أيام للنساء والتي كانت بعنوان: (كيف تحافظين على بيتكِ)؟

هل تعلمي أنه وحسب الخطة كان ينبغي أن يكون العنوان: (كيف تستقلين بذاتكِ بعيدًا عن أسرتكِ)؟

سأقول لكِ شيئًا آخر واذهبي وتأكدي من حمدي.

إن حمدي وقبل فترة وعندما كان في زبيد وبالتحديد في سمسرة السيدة حليمة استلم رسالة هو ومن معه تحذرهم من غزو قادم لاحتلال البلاد، هل تعلمين من أرسلها له؟

أنا يا منال.

نعم أنا، عند خرجت قبل فترة وغبت عنكم دون أن أخبركم بخروجي.

كنت أحذرهم لأني أحبكم وأريد أن أكون جزءًا منكم.

كنت أريد أن أحميكم.

لأني لا أريد التدمير لأحد، ولأنني ولأول مرة فهمت كلام جدتي.

هل مازلتِ تشكين بي يا منال؟

منال (والدموع على خديها): أنتِ رائعة يا سالي.

أعذريني، لكن لما أخفيتِ عنا كل ذلك.

سالي: لم أكن أريد أن أقلقكم، كنتُ أعاني طوال الفترة الماضية.

كنت أفكر كيف أبعد كل ذلك عنكم دون أن تشعروا.

كنت أريد أن أساعدكم دون أن يصل خبر لريتشارد بذلك، لأن معنى ذلك هو موتي يا منال.

أرجوكِ يا منال لا تخبري أحدًا بذلك حتى حمدي.

منال: ولكن.

سالي: لا تقلقي، يمكنكِ أن تقومي بتحذيرهم ومشاركتهم الاجتماع، لو تسرب أي خبر لريتشارد بأنني قمت بمساعدتكم أو حتى بعدم تنفيذ أي أجندة فإن ذلك يعني الخيانة العظمي، وستتم محاكمتي عسكريًا، وموتي كما قلت لكِ.

أرجوكِ يا منال.

منال: حسنًا يا سالي، أنا فخورة وسعيدة بكِ.

كبرت سالي في عيني منال.

قررت منال بأن تحضر الاجتماعات وفق توجيهات سالي، وتقدم العون بما تستطيع لكل الفريق، وتخبر بعد ذلك سالي بالنتائج لتوجهها بما تفعله.

كانت سالي في كل ليلة وقبل النوم تقص على منال قصص عن المخابرات والعمليات التي تقوم بها، وكيف يفكرون في احتلال الأوطان، وكانت منال تستمع بتركيز شديد لكل ما تقصه عليها سالي.

إن الاحتلال يا منال لا يبدأ من ليلة أن يضع أول جندي قدمه على أرضكم.

ولا عندما يضع أول جاسوس مخابرات قدمه على أرضكم.

ولا عندما نشتري العملاء من أبنائكم ليعينونا بحجة حمايتكم.

إن الاحتلال يبدأ عند رسم الخطط ووضع الأجندة هناك.

من مركز القيادة.

إنها خطط يتم وضعها لعشرات السنين.

إنهم يملكون النفس الطويل لتدميركم.

علمت سالي بقصة مريم المصفدي ابنة خالة منال، فقد أخبرتها منال عن ذلك.

تألمت سالي لها كثيرًا، وعزمت على مساعدتها بقدر ما تستطيع.

تحدثت سالي مع منال حول البحث عن إيجاد طريقة لأن تلتقي مريم بأطفالها.

أخذت سالي تبحث عن تلك الطريقة إلى أن اتفقت مع منال على أن تخبر حمدي بأن يطلب من نشوان بأن يأتي بمريم، ويخبر والده بأن السبب هو لزيارة بنات خالتها في الحديدة، لتقضي معهن عدة أيام، ثم يتفق مع عبدالرحمن على أن يأتي بأبنائه إلى الحديدة ليلتقوا بأمهم.

رحب حمدي بالفكرة وراسل نشوان وعبدالرحمن واتفقا على اللقاء.

مضت عدة أيام واجتمع شمل الأسرة في بيت العم صابر.

كم كانت سعادة مريم كبيرة بأطفالها.

كانت لحظة مؤثرة جدًا وهي تقوم بتقبيلهم، وضمهم إلى صدرها.

بكت مريم، وفرح الأطفال بأمهم، وأخذت تطعمهم، وتطمئن عليهم، وتريهم الهدايا التي جلبتها لهم.

تأثر الجميع بذلك اللقاء.

قضت الأسرة أسبوعًا في بيت العم صابر، وعملت سالي ومنال وحسناء على خدمتهم.

استمتعت الأسرة بالبحر كثيرًا وكم كانت سعادة الأطفال وهم يرون البحر لأول مرة.

استمتعوا كذلك بالذهاب إلى بعض المزارع وقضاء أوقات سعيدة وجميلة فيها.

كان أسبوعًا يوازي كل سنوات مريم التي عاشتها من عمرها.

بعد أسبوع غادرت الأسرة وتفرقا في الطريق، وكان وداعًا مؤلمًا.

كان مؤلمًا لدرجة أنك لا تتمنى أن تلتقي هذه الأسرة ببعضها مرة أخرى بسبب ذلك الوداع المؤلم.

بكى الجميع للفراق مرة أخرى.

كم هو مؤلم أن يحدث ذلك.

أن يتسبب أقرب الأقربين في دموع أسرة.

يتسببوا في تلك الدموع وهم يستطيعوا أن يستبدلوها لهم بدموع فرح.

كيف يستطيع الإنسان أن يعيش ويمضي في شؤون حياته وهو سبب في ألم إنسان آخر.

بل في ألم أسرة.

سعى مروان في المخا إلى مراقبة ريتشارد، وبيتر، ومزراحي، وكان على غير عادته يحضر الجلسات التي يقيمها والده في منزله معهم.

عرف مروان من خلال تلك الاجتماعات من أن والده لا يعرف شيئًا عن حقيقة ريتشارد، وبيتر، ومزراحي، وأن الأمر بالنسبة لوالده لا يتعدى عن كونها محاولة منه لأن يصبح أغنى رجل في المخا وشهبندر تجارها.

لم يستطع مروان تحذير والده من ريتشارد ومن معه، فقد يخبر والده ريتشارد عن ذلك بقصد أو بدون قصد فتنقلب الأمور رأسًا على عقب.

في أحد الأيام وبينما كان ريتشارد وبيتر ومزراحي في منزل صفوان رأى ريتشارد ورقة في الديوان.

أخذ ريتشارد الورقة بخفة.

فتحها ليجد فيها: (دكتور حمدي.. الوضع خطير، هنالك أجانب يتواجدون في بعض المناطق في اليمن، يقودهم ضابط تابع للمخابرات يدعى ريتشارد، لتنفيذ أجندة خارجية، والتخطيط للغزو، واحتلال بلادكم)**.**

جن جنون ريتشارد، ووضع الورقة في جيبه، واستأذن بالخروج بعد أن تأكد من أن صفوان لا يعلم عنها شيئًا.

عاد ريتشارد وبيتر ومزراحي إلى منزلهم.

بيتر: لماذا خرجت سريعًا يا سيدي؟

ريتشارد: تفضل اقرأ.

بيتر (مندهشًا): من كتبها؟

أين وجدتها؟

ريتشارد: إنها سالي.

أعرف خطها جيدًا، وجدتها في بيت صفوان.

مزراحي: هل صفوان يعرف عن حقيقتنا؟

ريتشارد: لا، لعله ابنه مروان.

بيتر: مروان ابن صفوان؟

ذهب ريتشارد وفتح أحد الأدراج وأخرج عدة مستندات بخط سالي ليثبت لهما أنه خطها وقال:

انظروا، إنه نفس الخط.

الخائنة تحذر حمدي منا.

مزراحي: ومن هو حمدي؟

ريتشارد: طلبت منها تنفيذ بعض المهام في الحديدة، وهنالك تعرفت على أسرة صابر، ولديهم ابن اسمه حمدي ويعمل طبيبًا، لقد كشفت أوراقنا لهم.

بيتر: وما العمل؟

ريتشارد(بغضب): الموت، لابد أن تموت سالي، ستحاكم عسكريًا وتذهب إلى المشنقة.

مزراحي: وماذا ستفعل مع حمدي؟

ريتشارد: حمدي ليس وحيدًا، طالما وصلت الورقة إلى مروان فلابد من أنهم مجموعة من الأشخاص عرفوا بأمرنا، وحمدي ومروان من أولئك الأشخاص.

لابد من مراقبة مروان ومعرفة مكان اجتماعهم، ولابد من أن نعجل بتنفيذ بقية الخطة، ونعطي التعليمات لقيادة المخابرات بأن الوضع أصبح جاهزًا للغزو والاحتلال.

بيتر: لقد خطونا خطوات جيدة.

أجزاء كبيرة من تعز، والمخا، أصبحت تحت سيطرتنا، وقام بقية الزملاء بدراسة عدن، والمكلا، وحضرموت، وبقية المناطق، وأما الحديدة.

ريتشارد: أصبحت أشك في التقارير التي أرسلتها سالي لي عن تنفيذ أجندتها في الحديدة.

طلب ريتشارد بعقد اجتماعًا عاجلًا لجميع عملائه المنتشرين في اليمن، على أن يكون مكان الاجتماع في إحدى مناطق شبوة بعيدًا عن أعين الناس، ثم أمر عمار بمراقبة مروان عند خروجه من المخا.

حان موعد اجتماع الأصدقاء في سمسرة حليمة.

حضر الشيخ كمال، وأحضر معه صديقه حازم من بدو الجوف، وحضر نشوان، وزوج أخته عبدالرحمن، وحضر سعيد، وسالمين، ورضوان، ومروان، وحمدي، وحضر الدكتور سامي من صنعاء، وخالد من صعدة بدعوة من حمدي، وحضرت كذلك منال، حيث جلست مع حليمة على طاولة قريبة منهم بعد أن طلبت من أخيها الحضور لوجود معلومات مهمة لديها.

أثناء توافد الجميع للاجتماع حضر عمار من المخا بعد أن أرسله ريتشارد لمراقبة تحركات مروان.

دخل عمار إلى السمسرة وجلس في زاوية من زواياها لتناول القهوة.

استغرب عبدالله ابن السيدة حليمة من تصرفات عمار، ونظراته إلى المجتمعين، وطلب منه الجلوس على طاولة بعيدة لأنه سيقوم بترتيب المكان.

بدأ الاجتماع وسأل الشيخ كمال عن مستجدات كل شخص.

تحدثا سعيد وسالمين عن الأجانب وعن حرصهم على دراسة عدن والمكلا وبعض المناطق المحيطة بشكل كبير.

ثم تحدثا مروان ورضوان عن ريتشارد وبيتر ومزراحي، وسيطرتهم على التجارة في المخا، والخطط التي قاموا بها حيال ذلك.

ثم تحدثا نشوان وعبدالرحمن عن ما فعله ريتشارد ومن معه في قرى تعز وإب، واستيلائهم على المزارع، وكيف تغير حال أهل القرى من ملاك لمزارعهم إلى أن أصبحوا ما بين عامل في تلك المزارع أو عاطل ليس له قيمة في أي قرار في القرية، بل وحتى شيوخ تلك القرى لم يعد لهم أي تأثير طالما طعام أهل القرية بيد غيرهم.

ثم تحدث الدكتور سامي وذكر بأنه شاهد شخصًا غريبًا جاء قبل أكثر سنة إلى باب اليمن من أجل لقاء تجارها، وكانت اسئلته كثيرة ودقيقة وعلى غير عادة الأسئلة التي يسألها السياح في صنعاء.

جاء دور حمدي وذكر بأن الأمور على ما يرام في الحديدة ولم يشاهد شيئًا مما ذُكر، وتحدث عن سالي وكيف أنها قدمت الكثير لأهل الحديدة دون أن تضرهم.

هنا تتدخل منال وتطلب الحديث عن بعض الأمور والتي قد لا ينتبه إليها أحد.

نعم قد تكون هنالك مقدمات غزو واحتلال لا نتوقعه.

ليس شرطًا أن تكون مقدمة أي احتلال الطلقة الأولى من البندقية، لكنها قد تكون برامج يتم تنفيذها كمقدمة تسبق تلك الطلقة.

هدف المحتل هو السيطرة دون خسائر يتكبدونها ولذلك قد يستخدم عملاء من خارج أو حتى من داخل البلد لتدمير المرأة والتعليم، ولذلك يقومون بالكثير من المخططات لدعوة المرأة إلى الاستقلال بنفسها أو التمرد على الرجل.

أو من خلال التعليم، عن طريق المطالبة بالابتعاد عن تعليم الأطفال أمور دينهم، أو أي أمور تطور من قدراتهم العقلية في العلوم أو الحساب، وزرع أفكار تهدم مبادئ المجتمع وإشغالهم عن كل تلك العلوم والبحوث بالتفكير في الترفيه والمتعة الغير محمودة.

أو قد يكون في السيطرة على الاقتصاد وعلى قوت أهل البلد حتى يتحكمون في قراراتهم وقرارات البلد المصيرية.

الشيخ كمال: صدقت يا منال، قد تكلمنا سابقًا عن خطورة ذلك لأن ذلك أمر قد يغفل عنه الكثير، لكن هل حدث شيء من ذلك في الحديدة؟

منال: لا.

الشيخ كمال: من خلال ما ذكرتم استنتج أن ريتشارد هو من يقود الأجانب هنا وقد أيد ذلك الرسالة التي استلمها حمدي الشهر الماضي من

الفتاة الغريبة التي تركتها عند حليمة، وأتوقع بأن تكون عدن هي الهدف الأول للغزو والاحتلال.

سعيد: كيف استنتجت أن عدن هي الهدف الأول؟

الشيخ كمال: اتضح من خلال دراسة الأجانب لعدن والمناطق المجاورة دراسة تفصيلية دقيقة لمخارجها ومداخلها وكأنهم يستعدون لدخولها، بينما بقية المناطق كالمخا وتعز وغيرها حاولوا السيطرة عليها اقتصاديًا واجتماعيًا لينشغل أهلها بالفقر والملذات، فتضعف بدايةً في إمداد عدن بالمساعدة حال غزوها، ثم بعد ذلك يسهل احتلال تلك المناطق مستقبلًا.

سامي: إذًا لقد رتبوا كل شيء وخططوا له.

خالد: بالتأكيد.

حمدي: والحل؟

الشيخ كمال: الآن دخلت مرحلة العمل، لابد من أن نحمي بلادنا، سنتحدث مع حكام كل منطقة ليجدوا حلًا لذلك بأقل خسائر.

عبدالله (بتعجب وهو يعرف حال حكامه): هل تقصد يا عم كمال أن نطلب من الحكام بأن يجلسوا على الطاولة لمناقشة الأعداء ورجائهم بعدم الغزو؟

الشيخ كمال: بل سنطلب من الحكام مساعدتنا لمواجهة الاحتلال القادم لا محالة، وأننا مستعدون لتقديم أي شيء تحت قيادتهم، المقاومة هي الحل وأما الطاولة فلا تنفع إلا أن تكون سفرة طعام.

لابد وأن يكون هنالك جيشًا على أتم الاستعداد يتم تجهيزه رسميًا من قبل حكام كل منطقة، صحيح أننا نعاني من ضعف وتفرق سياسي تسببوا به، لكن هذا لا يمنعهم من تقديم يد العون، إنه دورهم الذي لابد لهم من تنفيذه طالما تحملوا مسؤولية البلاد، يجمعنا ويجمعهم دين واحد ووطن واحد ومستقبل واحد.

بالنسبة للناس لابد من العمل على عدة محاور.

لنطلب من خطباء المساجد ودون الإشارة للغزو القادم بالحديث عن فضل الدفاع عن البلد في وجه الأعداء والجهاد في سبيل الله، وأن أي غزو سيدمر المجتمع، وسيقضي على مبادئه وعاداته، وسنصبح عبيدًا للمحتل.

لابد كذلك من الاهتمام بالأطفال، وتعليمهم، وكذلك توعية النساء بأهمية دورهن في الحياة وفق ديننا الحنيف، لنواجه الأعداء بنفس سلاحهم. أخيرًا لا نسمح للأجانب الأوربيين بأن يتصدروا أي مشهد مهما كلف الأمر.

لابد وأن نتم كل شيء بسرية تامة.

نشوان: وماذا عن ريتشارد ومن معه، وما قاموا به من شراء واستئجار للأراضي؟

الشيخ كمال: ليس لهم شيء من ذلك طالما أنهم يخططون للاحتلال، كل عقد تم عمله معهم بهذا الخصوص هو باطل، ما دفعوه مقابل تلك العقود لن يرجع إليهم بأي حال، بل سيكون من نصيب من حصل عليه، هو غنيمة لهم.

إنهم غزاه، وما قاموا بذلك إلا لأجل تنفيذ خططهم والاستيلاء على البلاد، لذلك سنسترد حقنا منهم بالقوة، والعقود ليست لها قيمة طالما نيتهم الغزو، أو تدمير البلاد، أو امتلاكها.

ليقوم كل منكم بتنفيذ ما ذكرناه في المنطقة التي يتواجد فيها، وبالنسبة للحديث مع الحكام أتمنى أن تنفذوا ذلك فورًا وتكتبوا لي مباشرة بردة فعلهم.

حازم: اتفقنا.

السيدة حليمة: على بركة الله.

الشيخ كمال: موعدنا مطلع الشهر القادم بإذن الله، ولو كان هنالك طارئ اكتبوا لي مباشرة أو ليحضر لي من لديه شيء مهم.

انتهى الاجتماع.

قبل أن يتفرق الجميع أشار عبدالله إلى الرجل الذي يجلس لوحده في الزاوية.

حاول سعيد أن يمسك به، لكنه استطاع أن يهرب ويختفي عن الأنظار.

عرف الجميع بأنه جاسوس جاء ليتجسس عليهم وأن عبدالله استطاع بذكائه أن يبعده عن مكان الاجتماع حتى لا يسمع حديثهم، وهذه علامة أخرى تدل على أن الوضع أصبح خطيرًا وأنه قد يُكشف أمرهم مع مرور الأيام.

اجتمع ريتشارد بعملائه الذين زرعهم في كل منطقة.

كانت اجتماعًا حاسمًا معهم.

شكرهم بدايةً على ما قدموه من جهود، وعلى تنفيذهم لأوامره بدقة كبيرة، وأن سيادة الملك المعظم يقدر لهم كل ما فعلوه.

أخبرهم كذلك بأن قيادة المخابرات طلبت منه إقامة محاكمة عسكرية بحق سالي، وأن تلك المحاكمة ستكون مع دخول القوات إلى ميناء عدن.

طلب منهم كذلك بأن يتوجهوا إلى عدن، وأن يمكث كل فرد منهم في سمسرة غير التي يسكنها الآخر حتى لا يثيروا الشكوك، لانتظار إشارة الصفر، ودخول القوات، وإحباط أي مقاولة من الإرهابيين، وشرح لهم كيفية ذلك.

انتهى الاجتماع وتفرق الجميع.

عاد ريتشارد ومزراحي وبيتر بعد ذلك إلى المخا لمتابعة المستجدات، والإشراف على مشاريعهم هناك.

في طريق العودة إلى المخا سأل مزراحي ريتشارد: وكيف سنحضر سالي؟

ريتشارد: سنرسل لها برغبتنا في حضورها، ثم سنتوجه بها إلى عدن وستتم محاكمتها هناك أمام الجميع في الهواء الطلق لنشنقها بعد ذلك كنوع من الاحتفال بدخول جنودنا ولرهبة سكان عدن.

عاد الشباب إلى مناطقهم ونجحوا في توعية الناس وتشجيع أئمة المساجد على الحديث.

نجحوا كذلك في توعية النساء والأسر، فهذه مهام لم تكن بالصعبة عليهم، لكن الذي كان يصعب عليهم هو الترتيب مع حاكم كل منطقة فلم يكن الإقناع سهلًا خاصة وأن الأدلة المادية الكبيرة لم تكن متوفرة لدى الشباب.

كان الحكام يرون بأن الاستجابة المباشرة لهؤلاء الشباب يعني تعود الشباب على المطالبة بالكثير من الحقوق مستقبلًا، وسيؤدي ذلك إلى علو صوت بقية الشعب.

كانوا يرون في هؤلاء الشباب تهورًا كبيرًا، وأنهم بأفعالهم هذه سيتسببون لهم بالكثير من المشكلات، وسيضايقون استقرار حكمهم في تلك المناطق التي يحكمونها، وتعكير صفوهم بمهاترات مع جهات أجنبية لا يعتقدون حضورها، وأن العين ستسلط عليهم كحكام بعد ذلك، لذلك فالسكون أفضل، ولو حصل شيء فعندها ستكون هنالك تفاهمات مع الأجانب للوصول إلى صلح.

لقد ضايق الأصدقاء ذلك الأمر كثيرًا.

رأى الشيخ كمال والمجموعة بأن ذلك نذير شؤم، وأنه لا يليق باليمن أم الحضارات ومن أخرجت الملكة بلقيس، والملك سيف بن ذي يزن، وغيرهم من ملوك سبأ وحمير وهمدان وكل الممالك القديمة أن يصل وضعها السياسي إلى هذا الحال من الضعف والفرقة، وأنه كان لابد على الحكام أن يعلموا بأن قوة حكمهم لا تكون إلا بقوة شعوبهم.

ضايقهم كذلك من أن الحكام رفضوا حتى النقاش معهم والاستماع لوجهة نظرهم، أو حتى في طرح حلول تجنب البلاد الكثير من الاحراجات في وقت كانت اليمن تمتلك أقدم مجلس شورى في العالم صنعته الملكة بلقيس وأولته اهتمامها.

هل رغبة الحكام في الاحتفاظ بكراسيهم ونعيم قصورهم جعلهم يضحون بمصالح البلد العليا؟

جعلهم يحرصون على وأد كل أمر يتوهمون بأنه قد يسحب بساط القصر من تحت كراسيهم؟

أم هو خوف من مواجهة يرون حلها بالود؟

لم تفرغوا لحماية قصورهم وتركوا إعداد البلاد لمثل هذه اللحظات؟

لم تركوا إعداد بلادهم لتكون قوية يهابها من حولها ويضربون لها ألف حساب؟

لماذا لم يعلموا بأن القوة هي اللغة الوحيدة لمخاطبة من هم خارج البلاد وليس من هم داخلها؟

لم تخلوا عن دورهم الأساسي؟

أين صوت منافقي القصر ومن قربوهم وظنوا أنهم أوفياء لهم لتحذيرهم من عدو قادم، بدلًا من تحذيرهم من فقير شاكي؟

على الأقل ألم يحن الوقت لهؤلاء الحكام بأن يسددوا للشعب ثمن الجبايات الظالمة التي أخذوها ومازالوا يأخذونها منهم، بحجة حمايتهم، والسهر على راحتهم، وتطوير المرافق؟

تحمس الشيخ عبدالودود للشباب بعد أن قص عليه ابنه رضوان كل شيء، وأصر على السفر إلى الشيخ كمال، وحضور الاجتماع القادم، وتقديم ما يستطيع.

عاد عمار إلى ريتشارد وأخبره عن الاجتماع، وسأله عن سالي وهل حضرت الاجتماع فأجابه بالنفي.

استلم ريتشارد رسالة من المخابرات أخبروه فيها بأن خطة دخول القوات تم اعتمادها.

أخبروه كذلك بأنهم سيختلقون مشكلة نهب إحدى السفن التابعة للإمبراطورية والقادمة من الهند لتبرير دخولهم إلى عدن.

أخبروه بأن مهمة مهاجمة ونهب السفينة المقصودة سيقوم بها العملاء التابعين له، وسيقوم طاقم السفينة بتسهيل مهمة النهب، ولذلك عليه أن يرتب لذلك، ويختار من يقوم بهذه المهمة خلال أقل من شهر، والترتيب مع الطاقم.

أكدوا عليه كذلك بضرورة تأمين دخول القوات إلى عدن عند ساعة الصفر، ووضع خطة لذلك، وموافاتهم بتفاصيلها لاعتمادها.

اجتمع ريتشارد بمزراحي وبيتر في صالون السمسرة التي يقيمون فيها، وأخبرهما برسالة المخابرات، وسرد عليهم أولًا خطة مهاجمة السفينة، ثم أخبرهما بخطة تأمين عدن عند دخول قواتهم، حيث سيقوم بنشر العملاء في بعض المناطق المحيطة بالميناء مع بعض

الجنود الذين سيدخلون سرًا قبل حضور القوات، لإحباط أي محاولة من الإرهابيين من سكان عدن لمواجه القوات كما ذكر ذلك للعملاء عند اجتماعه بهم، فيما سيكون ريتشارد عند الميناء هو وبيتر لاستقبال الجنود، وإدارة الميناء، وستكون سالي معهم والتي سيحاكمونها محاكمة عسكرية ثم سيشنقونها بعد نزول القوات وإتمام عملية الاحتلال بسبب رسالتها إلى حمدي والشباب في زبيد، وخيانتها للإمبراطورية، ولجهاز المخابرات.

أخبرهما كذلك بضرورة أن يبقى مزراحي في المخا وتعز مع عمال المزارع الذين جلبوهم ليديروا المزارع، ولإحباط أي مدد قد يأتي لعدن من قبل المناطق الأخرى، وكذلك ليتابع مزراحي بنفسه بداية تنفيذ الخطوة التالية لتدمير الشباب عبر نشر المواد المخدرة عليهم من خلال عمال المزارع، والتي تم إحضارها وإخفائها في مستودعهم بالمخا قبل فترة.

كذلك أخبرهما بضرورة أن يبدأ العملاء من الآن وكذلك العمال في المزارع ببث اليأس والإحباط بين الناس، وذلك بنشر شائعات عن قوة الجنود الأوروبيين وبطشهم، وكيف أنهم قتلوا الكثير من سكان البلاد الذين حاولوا مقاومتهم أثناء دخولهم لاحتلالها، دون الإشارة لاحتمال احتلال عدن، وذلك لبث الرعب في نفوس الناس، وثنيهم عن أي

مواجهة، وأن من يتعاون مع جنود الاحتلال يجد كل تقدير في المستقبل.

أخبرهم بأنه بداية سيتوجه مع بيتر وسالي إلى باب المندب لمتابعة الوضع هناك، بعد أن يرسل لها بالحضور دون إخبارها عن أي تفاصيل، ثم التوجه بعد ذلك إلى عدن.

أخبرهما كذلك بأنه سيراسل كل العملاء بموعد ساعة الصفر ليكونوا على خط الاستعداد والتنفيذ.

سمع مروان بتفاصيل اجتماع ريتشارد بمزراحي وبيتر عن طريق تخفيه في السمسرة.

أخذه القلق والخوف، ولم يدري ماذا يفعل، لكنه فكر وذهب مسرعًا إلى رضوان وأخبره بما حدث.

أخبره رضوان بضرورة الإسراع وإخبار الأصدقاء بذلك قبل أن ينفذ ريتشارد ومن معه أي شيء خاصة مع سالي.

توجه مروان ورضوان مباشرة إلى زبيد، ومن حسن حظهما أن كل ذلك صادف موعد الاجتماع مع الشباب والشيخ كمال.

رافقهم الشيخ عبدالودود في رحلتهم هذه، لأنه كان يرغب في ذلك كما أخبرهم، ولدعمهم وتقديم ما يستطيع لهم.

وصل الشباب جميعًا إلى سمسرة السيدة حليمة بحسب الموعد.

لم يعطي مروان فرصة للشيخ كمال لبدء الاجتماع وقص عليه وعلى الشباب ما حدث.

خطير ما ذكرته يا مروان.

قالها الشيخ كمال ثم واصل حديثه:

كما أخبرتكم سابقًا، عدن هي الهدف الأول.

لم يعد هنالك وقت لأي شيء، لابد أن نتصرف بأنفسنا دون الرجوع لأحد طالما لم نجد أي تفاعل أو دعم رسمي، وعند محاولة دخول قوات الاحتلال إلى عدن سيرون كل شيء على أرض الواقع وسيعذرنا الجميع.

سننقسم إلى ثلاث فرق.

فريق يقطع الطريق على ريتشارد لقتله ومن معه.

وفريق يذهب إلى تعز والمناطق المحيطة للتخلص من العمال الذين يعملون في المزارع.

ثم يجتمع الفريقان للانضمام إلى الفريق الثالث الذي سيذهب إلى عدن لمساعدة سكانها على مواجهة المحتلين قبل دخولهم.

وبالطبع لابد لنا من أن نحذر سالي من ذهابها إلى ريتشارد.

لو نجحنا في تنفيذ هذه المهام بدقة سننجح بأمر الله.

رحب الجميع بالخطة وتعاهدوا على تنفيذها مهما كانت الظروف.

تعهد عبدالودود بتحمل كل التكاليف المادية لكل الخطوات، وأن جميع التجار سيساهمون كذلك بما يستطيعون.

ذكرت منال كذلك بأن والدها العم صابر سيساهم كذلك ماديًا مع العم عبدالودود ومن معه.

تم تقسيم المجموعات كالتالي:

حمدي يقود مجموعة التخلص من ريتشارد ورفاقه ومعه رضوان، ومروان، وسامي، وحازم.

نشوان يقود المجموعة التي ستذهب إلى تعز والمناطق المحيطة ومعه سعيد، وعبدالرحمن، وسالمين، ليقوموا وبمساعدة الأهالي هناك في التخلص من العمال الأجانب.

بعد ذلك يلتقي الفريقان في عدن ليشكلوا فريقًا ثالثًا يكمل المهمة هناك بقيادة الشيخ كمال، بينما خالد يسبق الجميع من الآن لترتيب لقائهم في سمسرة الحاج علي في عدن حيث أن سعيد أعطاه كل التفاصيل التي ستساعده لذلك.

يبقى عبدالله عند والدته حليمة ليكونا مركز اللقاء الرئيس عند أي طارئ في حال وأن الأحوال قد ساءت.

اتفق الجميع وانفض الاجتماع على أن يبدأ التنفيذ من الغد بعد أن يبيتوا ليلتهم في السمسرة وينتظروا عودة حمدي ونشوان من الحديدة بعد أن يوصلا منال لمنزلها، فلا مجال الآن للكثير من الكلام فالوقت وقت العمل.

انفض الاجتماع وحمدي مازال مذهولًا من سالي وبالتضحيات التي قدمتها لأجل الناس هنا.

أحيانًا كثيرة نتفاجأ بأفعال عظيمة قام بها من هم حولنا.

ننبهر بها.

نعجب بما قدموا من تضحيات.

نعجب ونسأل أنفسنا لماذا لم يخبروننا بما فعلوا؟

نكتشف بأنهم كتموا عنا كل ذلك من أجلنا.

من أجل ألا نقلق عليهم وهكذا كانت سالي.

لم تكن سالي ترغب بأن يقلق عليها حمدي لأنها كانت تعلم جيدًا بأنه يحبها، وأنه سيموت تفكيرًا من أجلها.

واجهت كل شيء لوحدها، ونجحت في تجاوز الكثير من الأمور، وضحت بنفسها.

في نفس الوقت لام حمدي نفسه كثيرًا لأنه ظن بأنه كان السبب في الضرر بسالي، لأن الرسالة التي كانت معه لم يحرص على الاحتفاظ بها فسقطت منه سهوًا وأخذها مروان.

أخذ في لوم نفسه رغم أنه لم يكن يعلم بأن سالي هي من أرسلتها.

أرسل ريتشارد عمارًا إلى سالي يطلب منها الحضور على وجه السرعة إلى المخا لترتيب بعض الأمور.

وصل عمار إلى سالي وأخبرها بطلب ريتشارد.

لم تطمئن سالي إلى الرسالة، لكنها لا تدري ماذا تفعل، لأنها لو لم تذهب إليهم سَيُشَك في أمرها، ثم هي جندية عسكرية في المخابرات ويجب عليها تنفيذ كل أمر يُطلب منها.

فكرت وقررت الذهاب وتركت رسالة إلى منال ووضعتها عند شقيقتها حسناء بعد أن ودعتها.

دمعت سالي عند خروجها من بيت العم صابر.

لم تكن تدري لم تلك الدمعة التي انهمرت منها فجأة.

هل هو وداع أم ماذا؟

ولا تدري لم انقبض قلبها عند خروجها.

عاد حمدي ونشوان إلى الحديدة لإيصال منال وتحذير سالي ثم العودة إلى زبيد والانطلاق مع المجموعات.

دخلت منال المنزل.

أعطتها حسناء الرسالة ففتحتها وقرأتها:

(عزيزتي منال.

جاءت الأوامر بأن أتوجه إلى المخا فورًا، لعل هنالك أمرًا مهمًا.

لا تقلقوا بشأني، سأذهب وأعود.

بلغي تحياتي لحمدي ولعمي صابر.

أحبكم جميعًا

سالي)

جن جنون منال وبكت:

لماذا ذهبتِ يا سالي.

دخل حمدي ووجد منال تبكي، أخذ الرسالة وقرأها.

جن جنون حمدي.

لم يدري ماذا يفعل، لكنه أصر على الذهاب واللحاق بسالي وإنقاذها.

حاول نشوان ثنيه عن ذلك لأن ذلك قد يفسد الخطة التي تم وضعها، وأنه لابد له من التحرك مع مروان، ورضوان، وسامي، وحازم، خاصةً وأن التحرك سيكون صباح الغد، وليست تلك بالفترة البعيدة، ويمكنهم اللحاق بسالي قبل قتلها، خاصة وأن خطة ريتشارد هي الذهاب بها إلى عدن.

لم يستمع حمدي لأحد وذهب بمفرده مباشرةً باتجاه المخا للحاق بسالي.

عاد نشوان مسرعًا إلى زبيد وأخبر الجميع بما حدث.

طلب الشيخ كمال من رضوان، ومروان، وسامي، وحازم، بالتحرك معه مباشرةً للحاق بحمدي وريتشارد، وأن يتوجه الفريق الآخر إلى تعز، على أن يلتقي الفريقان عند خالد في عدن خلال خمسة عشر يومًا كأقصى حد.

وصلت سالي إلى المخا والتقت بريتشارد وبيتر ومزراحي.

سألها ريتشارد عن أخبار برامجها في الحديدة فأخبرته بأن كل شيء على ما يرام.

طلب منها ريتشارد بأن تغادر معهما صباح الغد إلى باب المندب ثم إلى عدن.

أخذ القلق يسيطر على سالي وأخذت تسأل نفسها:

لماذا باب المندب وعدن؟

لم لا أعود إلى الحديدة؟

هل حانت ساعة الصفر؟

لماذا ريتشارد في قمة هدوءه، ولم يعلق على ما أخبرته بخصوص الحديدة؟

إن نظرات بيتر تثير الريبة، لعل هنالك ما يخفونه عني.

مع شروق الشمس طلب منها ريتشارد بالاستعداد للرحيل هي وبيتر.

تحركوا، وركبت سالي فرسًا، وكان معهم ثلاثة آخرين أحضرهم ريتشارد للطريق.

مضوا جميعًا واتخذوا طريق البحر باتجاه باب المندب.

قبل الغروب أمرهم ريتشارد بالتوقف من أجل الراحة، وتناول الطعام، ونزل الجميع من ظهور خيولهم.

هنا يظهر حمدي والذي لحق بهم إلى المخا، ثم واصل طريقه إلى حيث هم الآن وموجهًا بندقيته نحو الجميع.

تعالي يا سالي حالًا ومن يتحرك سأقتله بالبندقية.

قالها حمدي موجهًا بندقيته صوب ريتشارد ومن معه.

صرخت سالي: حمدي، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

حمدي: افهمي الحقيقة يا سالي، إنهم يخططون لمحاكمتكِ وقتلكِ، لقد اكتشفوا حقيقة الرسالة.

ريتشارد: لا تتهور يا حمدي فلن تستطيع عمل أي شيء.

بيتر: دعه لي.

هنا يحدث اشتباك مفاجئ فيطلق حمدي طلقتين من بندقيته فيقتل اثنين من الرجال المرافقين، ويطلق بيتر النار على حمدي.

تدفع سالي حمدي حتى لا تصيبه بندقية بيتر لتصيبها الطلقة وتسقط أرضًا.

وسط كل تلك الأحداث يهرب ريتشارد وبيتر والرجل الباقي معهما ويختفوا عن الأنظار.

الحمدلله أنك بخير، اذهب يا حمدي وحافظ على بلدك.

قالتها سالي وهي تنزف دمًا.

حمدي: سالي هل أنتِ بخير؟

أرجوكِ يا سالي لا، أرجوكِ.

سالي: انظر إلى دمي يا حمدي، كم أنا سعيدة بأن دمي في سبيل الله.

كم أنا سعيدة بأن دمي يروي هذه الأرض التي أحببتها، سعيدة أن دمي اختلط بمياه البحر الأحمر، ليت موج البحر يحمل دمي إلى الحديدة، عمروها يا حمدي، عمروا اليمن وحافظوا عليها لتعيدوا حضارة بلقيس وتسودوا العالم بأمر الله.

حمدي: لقد قدمتِ الكثير لليمن، وللحديدة، وحافظتي عليها بدمكِ، أرجوكِ لا تموتي.

سالي: أنتم أهلي وأسرتي، اهتم بنفسك يا حمدي، بلغ تحياتي لمنال، وحسناء، والعم صابر، وكل الناس في الحديدة، دمي سيروي هذه الأرض لتعيشوا فيها بعزة وشموخ، أحبك يا حمدي، وأحب اليمن التي اشعرتني بأني امرأة لها قيمة، لم أشعر بتلك القيمة في أوروبا، وأحب

الإسلام الذي أعزني الله به، نلتقي في الجنة، سأنتظركم هناك، كم تمنيت أن أصبح زوجتك في الدنيا قبل أن أموت يا حمدي.

كانت كلماتها مؤثرة جدًا.

كانت تنطق تلك الكلمات بصعوبة بالغة.

كانت تخرج الكلمات من قلبها قبل لسانها.

حضر مروان، ورضوان، وسامي، وحازم، والشيخ كمال، وشاهدوا سالي ملقاة على الأرض عند رمال البحر تحتضر ومياه البحر الزرقاء تمر من تحت جسدها لتعود حمراء وتختلط بالبحر، وحمدي بجوارها، وشاهدوا كذلك الرجلين الذين قتلهما حمدي في الجانب الاخر.

نظرت سالي إلى الشيخ كمال وابتسمت وقالت له: هل توافق أن تكون ولي أمري، فأنا لا ولي لي، وتزوجني بحمدي؟

نظر إليها الشيخ كمال بإشفاق، ثم نظر إلى حمدي والذي أشار إلى الشيخ كمال بأن يقبل.

الشيخ كمال: موافق، هل تقبل بسالي زوجةً لك يا حمدي.

حمدي: نعم أقبل.

رضوان ومروان: ونحن نشهد.

ابتسمت سالي مرة أخرى وفارقت الحياة.

لم يستطع حمدي أن يتمالك نفسه وبكى.

تأثر الجميع بذلك المشهد.

كانت لحظات مؤثرة.

لقد استشهدت سالي العروس.

قُتلت بجوار البحر.

ماتت من قالت لمنال ذات يوم وهما عند البحر حافيتا القدمين بأن الحديدة هي عروس البحر الأحمر، قالتها ولم تكن تعلم بأنها هي من ستكون عروسًا لهذا البحر، وستزف عند مياهه يوم استشهادها.

طلب الشيخ كمال من حمدي أن يدفنوها عند الشاطئ بعد أن يصلوا عليها ليواصلوا طريقهم بعد ذلك باتجاه باب المندب.

تمت الصلاة ثم الدفن، ودعوا لها عند قبرها، وأكملوا طريقهم.

بكى عليها حمدي طوال الطريق.

كم كان فراقها قاسيًا.

كيف سيخبر منال وحسناء ووالده؟

أخذه البكاء ورضوان ومروان والشباب يذكرونه بالله، وأن ما عند الله هو خير وأبقى، وأنها فازت بما هو أعظم.

استمروا على حالهم، وواصلوا سيرهم نحو باب المندب ولم يجدوا أثرًا لريتشارد ومن معه، فاتجهوا مباشرةً نحو عدن.

وصل نشوان، وسعيد، وسالمين، وعبدالرحمن، إلى تعز.

توجه سعيد ونشوان إلى قرية المصافدة، وتوجه عبدالرحمن وسالمين إلى قرية المخاولة.

فرح الشيخ راجح وأهل المصافدة بعودة سعيد وسلامته، وأنه لم يُقتل كما قيل لهم.

أخذوه بالأحضان، وأطلقوا النار من بندقياتهم فرحًا بعودته سالمًا بعد طول غياب وإشاعة مقتله.

كانت السعادة غامرة، وأرادوا إقامة الاحتفالات بذلك لكن نشوان أخبرهم بأن الاحتفالات ستكون بعد دحر الأعداء وقص عليهم سبب حضورهما.

رحب المصافدة بالتعاون لطرد العمال الأوربيين خاصة وأنهم ضاقوا ذرعًا بما يفعلونه في المزارع، وتدخلاتهم حتى في الحياة العامة في القرية، وإفسادهم للشباب، وأنهم قد ندموا ندمًا شديدًا لما حدث.

في المقابل كان التفاعل نفسه في قرية المخاولة، بل أن هنالك من تبرع بأن يذهب إلى القرى الأخرى ويشد من أزرهم للتخلص من العمال الأوربيين، ويقدم لهم المساعدة بقدر ما يستطيع.

فرح سعيد، ونشوان، وعبدالرحمن، وسالمين، بما رأوه.

بدء الجميع بالاستعداد لمواجه العمال.

أصبح الجميع يتحدث عن مواجهة العمال وأنها قضية مصير لكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

وصل الخبر إلى المخاولة عن وجود سعيد في قريته وعودته إليها بعد طول غياب.

أخذتهم العزة والرغبة بالثأر لمقتل سفيان والذين ظنوا بأن سعيد قد قتله، وهموا بالذهاب إلى قرية المصافدة وقتله انتقامًا لدم ابنهم.

أراد عبدالرحمن ثنيهم عن ذلك.

حاول بشتى الطرق.

أخبرهم بأن سعيد لم يقتل سفيان، وأن سفيان سقط خطأً من الجبل.

أخبرهم بأن الوضع غير مناسب للحديث حول هذا الموضوع فأمامنا عدو أكبر لابد من أن نتحد جميعًا لدحره والتخلص منه، وبعدها لكل حادث حديث.

حاول معهم لكنهم لم يستمعوا له لأنهم يرون بأن عبدالرحمن لا يريد أن يخسر مريم المصفدية.

لم تفلح محاولات عبدالرحمن وسالمين وأصر المخاولة على الخروج لقتل سعيد.

نتخلص من سعيد، ثم بعد ذلك ندحر العمال والغزاة.

هكذا كان تفكيرهم.

هكذا قرروا ونسوا كل شيء.

عندما علم المصافدة بذلك تغير رأيهم وجهزوا رجالهم لكن لقتال المخاولة لا العمال أو حتى التوجه لدحر الغزاة.

انقلبت الأمور رأسًا على عقب، وعادت المشكلة بين القريتين أسوء من قبل.

هرب سعيد، ونشوان، وعبدالرحمن، وسالمين، وخرج كذلك معهم منصور شقيق نشوان بعد أن تحمس معهم.

خرجوا باتجاه عدن دون تنفيذ المطلوب منهم.

هربوا لأنهم أصبحوا في نظر أهالي القرى التي ينتمون إليها لا يهتمون لسمعة القرية ولا القبيلة، بل يبحثون عن مصالح كل منهم.

من المؤلم أن ننشغل بقتال بعضنا ونتجاهل العدو الحقيقي الذي يتربص بنا جميعًا.

أين ذهبت عقولنا ونحن نرى عدونا يخطط ويصول ضدنا لننشغل بمشكلات داخلية.

مشكلات كان يمكن التغاضي عنها أو أن يتم تأجيلها على أقل تقدير.

للأسف كان ذلك من أسباب تمكن الأعداء منا لكننا لا نتعظ.

وصلت رسالة إلى حاكم لحج من الإمبراطورية بأن هنالك من قام بإحراق ونهب سفينة تابعة لهم قادمة من الهند رست في ميناء عدن في طريقها للعودة.

أخبروه بأن ذلك قد تسبب لهم بخسائر كبيرة، وبأنهم سينتقمون من أهل عدن بسبب فعلتهم هذه.

غضب حاكم لحج لذلك غضبًا شديدًا وتحقق من الأمر ليكتشف بأن الإمبراطورية تخطط للاحتلال، وبأن هنالك مؤامرة حيكت لذلك.

حاول تدارك الأمر.

راسل حكام المناطق لمناقشتهم حول ذلك.

تكلم مع حاشيته ولم يصلوا إلى حل لهذه المشكلة التي حلت بهم.

حاول التفاوض مع الإمبراطورية.

أرسل لهم الرسائل من أجل حل يرضيهم.

وعدهم بالتحقيق في الأمر، وأنه سيبحث عن الجناة وسيحاسبهم.

لم يردوا عليه، ولم يتركوا له فرصة.

ليته تدارك كل شيء مبكرًا.

ليته وحكام المناطق استمعوا للصادقين الذين حذروهم من الاحتلال.

ليتهم على الأقل عملوا على إعداد جيوشهم لأي خطر محتمل.

لن ينفعه، ولن ينفع بقية الحكام اليوم بكاؤهم على بلد كان كل شيء فيها بأيديهم لتكون مُهابة يخشاها الجميع كما كانت.

ماهي إلا أيام وبدأت تنهال القذائف على عدن من كل صوب.

كم هو مؤلم أن تدفع الشعوب ثمن سياسات حُرمت من التدخل فيها.

كم هو مؤلم أن تدفع الشعوب ثمن إهمال لم تتسبب به لكنها ساهمت فيه بسكوتها.

لماذا لا تفهم الشعوب بأنها إن ترددت اليوم عن الصراخ (بلا) فإنها ستصرخ ألمًا في اليوم الذي يليه.

إن سكوت الشعوب لا يعين الحكام على ظلمهم فقط، بل ويُشعر أولئك الحكام بأنهم على حق، ثم يجر البلاد إلى الهاوية.

وصل بقية الشباب إلى عدن بداية القصف وقبل دخول الغزاة، والتقوا بالشيخ كمال.

كان هنالك إحباط كبير بين الشباب لتسارع الأحداث، ولعدم نجاحهم في مهامهم.

سعى الشيخ كمال إلى توزيعهم وتنظيمهم لدعم أهل عدن بما يستطيعون.

لم ينجحوا، فالمدد مقطوع والجنود الرسميين لم يكونوا مستعدين بخطة للمواجهة.

اشتد القصف على أهل عدن وكان هنالك شهداء وجرحى كثر من سكانها.

وصلت قوات الاحتلال، واستقبلها ريتشارد، ودخلوا المدينة، وكانت الأوامر بأن يقتلوا كل من يعترض طريقهم من الإرهابيين.

نعم، من يدافع عن عدن ويقاوم جيش الإمبراطورية هو إرهابي يجب قتله على الفور.

من الذي أعطاهم شرعية امتلاك الأرض حين دخولها؟

من الذي أعطاهم شرعية تصنيف سكان الأرض التي احتلوها بحسب ما يريدون؟

دخل المحتلون المنازل واقتادوا الشباب إلى السجون السرية التي احضروا عدتها من أجل ذلك.

الأطفال في بكاء مستمر.

النساء من الأسطح يلقون باتجاه الجنود كل شيء أمامهم لدحرهم.

القناصة ينتشرون ويطلقون من بندقياتهم كل من يرونه على تلك الأسطح.

حاولت بعض الأسر الهروب إلى القرى خارج عدن.

قاوم الكثير من السكان، وقتلوا بعض جنود الاحتلال، لكن فرق الإمكانات وانتشار العملاء التابعين للمخابرات ساهم في تمكن المحتل من المدينة.

استشهد حمدي.

لحق بسالي التي تنتظره بعد أن دافع بما يستطيع.

استشهد حمدي ولحقه سعيد، وحازم، وسالمين، ومروان، ومنصور، وأصيب عبدالرحمن، ونشوان، وسامي، ورضوان، وخالد.

استشهد معهم الكثير من الشجعان الذين دافعوا عن المدينة رجالًا ونساء، وأصيب الكثير.

حتى الأطفال مات منهم الكثير ولم يرحمهم جنود الاحتلال.

هدمت البيوت على ساكنيها.

أصبح كل شيء في عدن يدل على الموت.

سقط الشيخ كمال عند ميناء عدن مصابًا ببارود بندقية صوبها نحوه جندي الاحتلال.

أخذ الشيخ كمال ينزف دمًا ويبكي مرددًا:

لن ننتصر عندما ننسى عدونا الحقيقي، وننشغل بصراعاتنا الداخلية.

لن ننتصر وعواطفنا تسيطر على عقولنا.

لن ننتصر ونحن نطلبه من بندقية غيرنا.

لن ننتصر طالما فكرنا بمصالحنا على حساب أرضنا.

لن ننتصر طالما ابتعدنا عن الله، وتعاونا مع الأعداء.

لن ننتصر طالما يرون حماسنا مضيعة للوقت، وأن الساسة هم فقط من يرون الحقيقة دون غيرهم.

لن ننتصر طالما فضلنا الصمت وسكتنا عن الظلم.

استشهد كمال وهو ينظر إلى جندي من جنود الإمبراطورية ويقول له:
إن قتلتمونا اليوم فإن أطفالنا سيطردونكم غدًا، قد نموت الآن لكن النضال لن يموت.

مشهد أخير:

امرأة اسمها سالي، تتأمل جمال البحر من شرفة منزلها في عمارتها السكنية الفاخرة الملاصقة لمياه شاطئ الحديدة، ومن خلفها ابنتها منال والتي تفتش درج أمها الخاص في غرفة نومها، لتمسك بورقة قديمة وتسأل أمها عن هذه الورقة.

سالي: وماذا بها يا صغيرتي؟

الطفلة: مكتوب فيها: (حفيدتي سالي.. لا تنسي أن تكملي ما بدأناه، فالطريق واحد نحو الحرية، وإن تبادل أعداؤنا الأدوار. التوقيع: جدتكِ منال صابر).

تنظر الطفلة إلى أمها، لترى دموعها تنهمر من عينيها، لتغذي مياه البحر، حزنًا على حال بلدها المنكوب.

ISBN: 9789776656301